القسم الرابع

الانتعاش المالي

١٥-حكم القانون

كانت السبلة آخر المعارك التي خاضها ابن سعود، وكانت نهاية حقبة، وبداية حقبة جديدة، شهدت مولد أمة جديدة.

حكم ابن سعود هذه الأراضي الشاسعة والتي بلغ طولها حوالي ألف ومائتي ميل، وعرضها سبعمائة ميل، حكمها بمفرده، وكما يحكم أي شيخ عربي، فالحياة في الصحراء تتطلب نوعاً معيناً من الحكم، فالبدوي يتوقع من حاكمه ثلاثة أمور: أن يبسط الأمن بفاعلية، أن يحمي الفقراء من جشع الأغنياء، وأن يدفع عن أرض المرعى غارات وهجمات الجيران، وإذا ما فشل الحاكم في تحقيق هذه الأهداف الثلاثة، تصير إزاحته عن الحكم أمراً لازماً.

حكم ابن سعود في الصحراء عن طريق شيوخ القبائل، وحكم في المدن عن طريق الحكام المحليين الذين كان يعينهم لذلك الغرض، وكانت القبائل هي التي تختار شيوخها بطرقها التقليدية المعتادة، أما الحكام المحليون الذين اختارهم ابن سعود، فهم إما من بني عمومته، أو من صحبه القدامى الخلص الذين شاركوه عملية استرداد الرياض، أو من أتباعه المخلصين له، ومن أولئك مثلاً ابن عمه عبد الله بن جلوي الذي تمكن من قتل عجلان حاكم الرياض في ذلك الصباح المشهود، فقد أصبح ابن جلوي حاكماً قوياً للهفوف في إقليم الأحساء، كما كان الأمير سعود بن عبدالعزيز آل سعود، هو نائب والده في الرياض أثناء فترات غيابه، وكان ابنه الثاني الأمير فيصل نائبه في الحجاز.

في هذه الفترة من حياته بدأ ابن سعود يحيط نفسه ببعض المستشارين، وكانوا في معظمهم عرباً من البلاد العربية المجاورة منهم: الشيخ حافظ وهبه، وهو مصري ذو خبرة واسعة في شؤون الشرق الأوسط، وهو سفير الملك عبدالعزيز فيما بعد في لندن، ومنهم أيضاً: رجل لبناني - هو فؤاد حمزة، والذي كان له فضل تنظيم النواة الأولى لوزارة الخارجية السعودية، والرجل الوطني الوحيد من بين أولئك المستشارين كان هو الشيخ عبد الله السليمان، من أهالي عنيزة، الذي كان بمثابة وزير المالية، ويمكن اعتبار فيلبي مستشاراً أيضاً، فقد كان دائماً مستعداً لإعطاء مشورته ونصحه، ولكنه لم يعط وظيفة رسمية في البلاط.

ظل كل هؤلاء مجرد مستشارين، لا سلطات خاصة لهم فالسلطة كلها في يد ابن سعود، وكان لا يستشير أحداً في شؤون رجال القبائل، والذين كانوا هم أغلبية رعاياه، فهو الوحيد العارف بأمورهم، وشؤونهم،يعرفها كما لم يعرفها أحد غيره، ولم يكن ابن سعود يحتجب عن رعيته فبابه مفتوح للجميع وفي كل وقت، ومجلسه مفتوح لكل شاك ومتظلم، فكان الرجل يأتي مجلسه، وقد يناديه باسمه المجرد، -يا عبدالعزيز- ثم يقدم شكواه، كانت تلك شكوى شخصية ضد جار له، أو قريب، أو كانت شكوى رسمية ضد أحد الحكام أو غيره من رجال الدولة، أو ربما حتى ضد ابن سعود نفسه، وكان كل أولئك يجدون الترحاب، والاستماع إلى شكاواهم، والفصل فيها بكل تجرد وعدل.

كان مجلس ابن سعود يستغرق معظم وقته، خاصة عندما ازداد عدد رعاياه، وكثيراً ما كان يدخل عليه بدوي وهو في اجتماع مهم مع سفير من السفراء، يشكو إليه من أمير ما، أو شيخ ما، ولا يمنعه، اجتماعه ذاك من الاستماع إليه، وقضاء حاجته ثم يعود لمواصلة اجتماعه، وكانت له مقدرة

عجيبة لتصريف عدة أمور في وقت واحد، فتراه -مثلاً- منهمكاً في اجتماع ما، ثم هو في الوقت نفسه يملي رسالة على أحد مستشاريه وقد يستمع إلى شكوى شاكٍ دخل عليه وهو في اجتماعه.

وعندما ازدادت مسؤولياته، وضاق وقته، حاول مستشاروه وبعض مساعديه تولي شكاوى أفراد الرعية البسيطة نيابةً عنه، خاصة عندما عم استعمال البريد، والبرق في أنحاء البلاد، وبدأت الشكاوى تصله عن طريق تلك السبل فكثرت وتنوعت، ولكن ابن سعود لم يرض عن محاولة تلك المساعدة، ولم يرض أن يحول مستشاروه بينه وبين رعيته، بل يقال: إنه غضب لذلك غضباً شديداً، وأصدر مرسومه الملكي المؤرخ يونيو ١٩٥٢م، ولعله آخر مراسيمه الملكية، والذي حذر فيه بشدة عن حجب شكاوى رعيته عنه.

يقول في ذلك المرسوم: «إنه قد نما إلى علمنا بأن الشكاوى الموجهة إلينا عن طريق اللاسلكي، أو مكاتب البريد قد حجبت عنا، ولذا فإننا نأمر وبموجب هذا -أن أي شكوى ترسل إلينا من أي شخص- كائناً من كان- أن ترسل إلينا بنصها، ودونما تغيير فيها، وعلى المعنيين أن لا يؤخروها، أو يفشو محتوياتها للشخص المشكو منه، سواء كان ذلك الشخص حاكماً، أو وزيراً، أو كان ذا مكانة دانية أو عالية» .

وقد أمر ذلك المرسوم بمعاقبة كل من يقوم بتأخير، أو تعطيل وصول أي شكوى لأي سبب من الأسباب، كما أمر حكام الأقاليم بإعلان المرسوم على كل المواطنين، وانتهى المرسوم إلى القول: «إننا نخطر رعايانا بأننا دائماً مستعدون لاستلام أي شكوى، وإذا وصلت إلينا شكوى من أي شخص، فسيعطى كل من لحق به ظلم حقوقه كاملةً، وسيلحق بالظالم العقاب الذي يستحقه، ونحن إذ نفعل ذلك إنما نؤدي أمام الله واجب الحاكم تجاه شعبه، وأننا لنضرع إلى الله

القدير أن يوفقنا ويبارك فينا جميعاً» وأمهر المرسوم ببساطة وتواضع «عبدالعزيز» دونما ألقاب، أو أبهة، أو عظمة.

كان زواره على كثرتهم، وعلى تعدد أغراضهم يتوقعون أن يهدي لهم شيئاً قبل مغادرتهم، وقد حافظ ابن سعود على هذا التقليد العربي الأصيل طيلة حياته، وكانت هديته الرئيسة لمعظم زواره «عباءة» تشريفية، وكان في أحيان يعطي مالاً، كلما كان ذلك مناسباً، أو كان يهدي هدايا نوعية، مثل الخناجر المطعمة بالذهب، أو السيوف، أو الخيول العربية، أو عقود من اللؤلؤ لزوجات بعض زواره، أو خاتم، أو أبسطة، وكان في أخريات أيامه يهدي ساعات ذهبية، كما أن زواره من رعاياه كانوا يتوقعون منه أن يطعمهم، ويزودهم بزاد السفر أيضاً عند مغادرتهم، وقد شملت هداياه تلك زواره الأجانب من دبلوماسيين وصحفيين، ورجال أعمال، وضباط جيش، وفنيين وطيارين... إلخ.

إلى جانب الزوار، كان هناك آلاف أخرى من البشر يأملون أن يشملهم كرمه، مثل شيوخ القبائل والذين كثيراً ما كان يمدهم بمؤنهم من الطعام، وكذلك يعطيهم الهدايا، والمال، وهناك أصحاب الحاجات: التاجر الذي أفلس، والمدين الذي لايستطيع دفع دينه، والذي عليه دية، وطالب العلاج، وطالب الزواج، والمعدم، وحتى بعض أعدائه السابقين الذين كانوا يتوقعون عطاياه، كان كل أولئك يرجون عونه وسنده، وكرمه، وكان كلما سافر من مكان إلى مكان آخر يقيم الولائم الكبيرة لكل الحاضرين، ويفرق المال على الفقراء، وحتى عندما كان بعض شيوخ القبائل يقيمون له الولائم، كانوا يتوقعون منه دفع نفقاتها، وباختصار كان كرم الأمير يعم معظم رعاياه، فالكرم من شيمه، وعون الفقير وإغاثة الملهوف، وذي الحاجة، أمور ينص عليها الدين الإسلامي الحنيف.

والإيثار على النفس، ولو كان بها خصاصة، والكرم الذي لا يعرف حدوداً تقاليد عربية راسخة، في كل المجتمعات البدوية، وقصة البدوي الذي يذبح الشاة الوحيدة التي يمتلكها لضيفه، أو يهديه فرسه الوحيدة قصة معروفة عند العرب، والبدوي رقيق الحال الذي لا يمكن قرى الضيف، يسكن بعيداً عن طريق القوافل، وعن الطرق التي يسلكها المسافرون في الصحراء ، خوفاً من أن يحل عليه ضيف وليس عنده ما يقدمه له. وابن سعود هو ابن تلك البيئة ونتاجها، فكان يعطي ويعطي حتى تفرغ خزانة الدولة تماماً أو تكاد.

فإن كانت قوة الشخصية، والثقة بالنفس، والمهارة في القتال هي أساس ومصدر قوته، فإن قربه من رعيته، وسهولة وصولهم إليه، وكرمه الفياض، هي بعض الوسائل التي مكنته من أن يستخدم تلك القوة بمهارة، أما الوسيلة الأخرى فهي إشاعته للعدل بين رعاياه، فمجلسه، ليس مكاناً لاستقبال ضيوفه وقاصديه فقط. وإنما هو محكمة أيضاً، وهو قاضي تلك المحكمة، وقانونه الذي يحكم به هو الشريعة الإسلامية، وهي شريعة فوق الجميع، وحكمها نافذ على الجميع، حدودها نافذة لا رجعة عنها، مثل حد السرقة قطع اليد، وحد القتل وهو إما القصاص، أو الدية إذا ما قبل أهل القتيل ذلك. أو العفو في أحيان كثيرة، أما الجروح فهي قصاص، والذين يعترضون على أحكام هذا القانون الإلهي من الأمريكيين والأوربيين، لا يدركون من الأمور إلا ظواهرها، وهم يتجاهلون تاريخهم الغربي، إذ إن عقاب السرقة كان وحتى عهد غير بعيد -في المجتمعات الغربية- أشد قسوة من الحدود الإسلامية ولعل أولئك لا يدركون أيضاً أن الردع هو العلاج الناجع لجرائم البشر الكبرى، وإن للقانون الإسلامي سعةً لا تجدها في غيره، ولولا تلك العقوبات الرادعة لما ساد الصحراء الأمن والسلام، ولظل البدو في الفوضى التي كانوا يعيشون فيها.

اتصف ابن سعود في مجلسه وغيره أنه مضيف كريم لقاصديه من رعاياه، ولزواره الأجانب، وكانت هناك تقاليد خاصة ونظام بروتكولي معين يمر به الزائر الأجنبي، فعند وصوله إلى الساحل يستقبله مندوبو ابن سعود مرحبين به، ثم تتبع ذلك رحلته عبر الصحراء من جدة إلى الرياض في صحبة بعض رجال ابن سعود، وعند وصوله إلى بوابة القصر يستقبله موظفوه، حيث يأخذونه عبر طرقات، ودهاليز، ملأى بالحراس والخدم والزوار والقاصدين إلى قاعة الاستقبال الرئيسة، حيث يجد ابن سعود وحوله خاصته وحاشيته في استقباله، والجميع في القصر يقولون عن ابن سعود «الشيوخ» فهم يرمزون إليه بهذه الصيغة -صيغة الجمع لكلمة الشيخ- فيقولون عنه إذا ما قدم «الشيوخ» قادم، أو أن الشيوخ يؤدي الصلاة، أو أن الشيوخ قد خرج إلى آخر ذلك من الأقوال.

كثير من زوار ابن سعود الأجانب تأخذهم بساطته في الملبس والمظهر، فكل الذي يميز ملبسه من ملبس البدوي العادي هو نظافتها. وهو دائماً ما يضع على غترته عقالاً مطرزاً بخيط من ذهب(١)، وابن سعود مغرم ومحب للعطر، فهو يضعه دائماً على جسده وملبسه، وهو في ذلك كما قال: يتأسى بالنبي الكريم ﷺ والذي يروى عنه أنه قال لصحابته حديثاً شريفاً معناه: إنه إنما حبب إليه من هذه الدنيا ثلاثة أشياء هي: الصلاة، والطيب، والنساء(٢).

---

(١) يعرف هذا العقال بالمقصب.

(٢) يشير المؤلف إلى حديث النبي ﷺ إذ يقول: « حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». انظر سنن النسائي، كتاب عشرة النساء.

قصر ابن سعود بسيط في بنائه وأثاثه، وهو غالباً ما يستقبل زواره في قاعة ذلك القصر الرئيسة، يستقبلهم كلهم واقفاً، الكبير والصغير، الغني والفقير، وإذا ما أراد تشريف واحد من زواره فهو يأخذه من يده، ويجلسه بجانبه، وابن سعود مباشر إلى حد بعيد في حديثه وفي نقاشه، فهو ينفذ إلى لبِّ الموضوع مباشرةً، وهو كثيراً ما يؤكد على ما يقول بعصى يحملها دائماً، يطرق بها الأرض، وقد خرج كثير من الدبلوماسين الذين قابلوه بانطباع جيد عنه، فهم دائماً يتحدثون عن حكمته، وعن معرفته التامة للموضوع الذي يتحدث عنه، وقد قال بعض زواره من أهل المدن - من علماء وأدباء وغيرهم- إنهم وجدوا بعض الصعوبة في فهم لهجته ذات الطابع البدوي.

احتساء القهوة هو أحد سمات لقاءاته مع زواره العرب والأجانب، وهي عادة عربية عرفها العرب حديثاً، إذ إنها لم تكن معروفة عند العرب القدامى، وإذا ما طلب الأمير القهوة له أو لضيفه، فإن أمره ينفذ بطريقة مسموعة، إذ يصيح كل من يصله الأمر بصوت عال إلى الشخص المعني الآخر بطلب القهوة وهذه الطريقة قد تجعل بعض الزوار الأجانب يظنون أن أمراً طارئاً قد حدث، وقليل من زواره الأجانب لم يتحدثوا أو يصفوا ابتسامته الحلوة -فالكل يتحدث عنها ويصفها، فقد وصفتها السيدة جير ترود بيل- بأنها ابتسامة حلوة، -وغير السيدة بيل- وهي ابتسامة كثيراً ما أقنع بها ابن سعود محدثه، ممن لم تقنعهم الحجج والبراهين، وغضب ابن سعود نادر جداً، ولكنه إذا ما حدث، فكثير من الذين شاهدوه، يقولون إنه أمر مخيف.

تجاذب أطراف الحديث والسمر هما وسيلتا الترفيه الوحيدة في القصر، فليست هناك وسائل أخرى غيرهما، وكان ابن سعود يجلس في أوقات فراغه

ليسمر ويتحدث مع خاصته، وكان متواضعاً في كل أحواله، لا يقبل الإطراء والنفاق، ويقول دائماً لسامعيه إنه يعرف نفسه أكثر من الذين يمدحونه ويطرونه، وكثيراً ما كانت مواضيع الحديث في تلك الأمسيات تشمل موضوعات مثل مناقشة بعض الأمور الدينية، أوبعض شؤون الصحراء، أو شؤون الحكم، وأحياناً كان الحديث يدور حول النجوم والفلك، فكل من عاش في الصحراء يعرف النجوم ويعشقها. وأحياناً كانت مواضيع السمر تلك تشمل موضوعات خفيفة، مثل التندر على بعض صحبه، أوتدبير بعض المقالب، أوالفصول المضحكة عليهم.

وسائل التسلية الوحيدة في مدينة الرياض هي حضور الولائم، والرحلات، ومباريات السباق، والصيد بواسطة الصقور، ولم يكن ابن سعود حريصاً أو محباً لحضور الولائم سواء أكانت تلك ولائم أعراس، أم ولائم لاستقبال ضيوف، أو ما شابه، وكانت الولائم تشابه بعضها بعضاً، لا تختلف إلا في كمية الأرز واللحم المقدم فيها، وهي إما مكونة من عدد من الخرفان تطبخ كاملة وتوضع على كميات من الأرز، وفي حالة الولائم الكبيرة كان يطهى الجمل كاملاً، ويحشى بالخرفان، ثم تحشى الخرفان ذاتها بالدجاج، ويكون الدجاج ذاته محشواً بالبيض. والعادة المتبعة أن الناس لا يتحدثون كثيراً أثناء الأكل - وإنما يتحلقون حول الصحون الكبيرة الموضوعة إما على الأبسطة، أو على الأرض، يأكلون بالطريقة المعروفة، وهي أن يقوم الشخص بخلط الأرز باللحم والإدام بيده، ويجعل ذلك في شكل كرة صغيرة، ثم يقذف بها إلى فمه في شيء من السرعة.

كمية الأكل تفوق دائماً وبكثير عدد المدعوين، وإذا ما أكل الضيوف فإن قواعد الذوق والأدب تستدعي أن لا يبقى الآخرون يأكلون، ولعل ذلك هو

السبب في أن الجميع يأكلون بسرعة واضحة، وإذا ما قام الضيوف عن الأكل، أتى من هم دونهم فيأكلون، ثم يأتي غيرهم وغيرهم، وكان ابن سعود في فترة العشرينيات من هذا القرن لا يحضر مثل هذه الولائم الكبيرة إلا نادراً ، فهو رجل قليل الأكل- ووجباته سريعة، وغير منتظمة، وكثيراً ما كان يتناول بعض الأدوية التي تساعد على الهضم، لم يستعمل الأمير الشوكة والسكين في أكله، ولكنه في حوالي ١٩٣٠م شهد قصره تطوراً جديداً، إذ وضعت في غرفة طعامه منضدة وكراسي، وكان ابن سعود يستعمل الملعقة في حضرة ضيوفه الغربيين.

كان استمتاعه بالرحلات، والسباق، والصيد أكثر من استمتاعه بالأكل والولائم- فالسباق وما شابهه أساليب تسلية رجولية، وكثيراً ما كان يخرج في رحلاته تلك مع أطفاله وأطفال آل رشيد الذين تبناهم إلى مزارع النخيل وغيرها من المزارع خارج الرياض، وكان لكل طفل خادم يقوم على رعايته وحمايته من تلك الرحلات، والذي لا شك فيه أن ابن سعود كان يحب تلك اللحظات التي يعيشها مع أطفاله، فقد عرف عنه أنه أبٌ ممتاز، يحب عائلته كثيراً، وقد يتخلل هذه الرحلات سباق للهجن، أو الخيل، أو في أحيان رياضة الرمي - أي إطلاق النار- وفي أحيان أخرى ممارسة الصيد بواسطة الصقور، وتلك رياضة قضت على الغزلان، والحيوانات البرية الصغيرة، في المنطقة الواقعة حول مدينة الرياض.

تعرضت حياة ابن سعود لكثير من التخمين، ومن الاجتهاد ، والاستنتاجات التي ليس لها في كثير من الأحيان ما يبررها، ذلك أن النزر اليسير معروف عنها، والذي لا شك فيه أنها كانت حياة عائلية هادئة، وهانئة وسعيدة، ويمكن

القول في النهاية إن ابن سعود عاش وحكم وهو موقن ومدرك أن هناك قوة أكبر وأعظم منه، تسيره، وتحكم تصرفاته كلها، هي قوة الخالق سبحانه وتعالى، ولعل هذا الإدراك العميق هو العامل الأساسي وراء تواضعه الجم، تواضع أمام الكل، أمام كل طبقات شعبه، بابه مفتوح لهم، وقلبه أيضاً مفتوح لهم، هو معهم، لا يتعالى ولا يحتجب عنهم.

وأخيراً فإن الإطراء، وأبهة الحكم وعظمته لم تفسده، ولم تغيره، وذلك؛ لأنه لم ينسَ ولو للحظة قوة المولى عز وجل وجبروته.

١٦- حق الامتياز الأمريكي

لقد قال البعض أحياناً، إن ابن سعود رجل من عظماء الرجال، وأنه لو لم يكن كذلك، لتخلى عن جهوده الكبيرة، ونضاله الطويل المرير من أجل خلق شعب واحد من أولئك البدو، بدو الصحراء المتنافرين المتحاربين، المشتتين، والمفرقين في صحارى الجزيرة العربية الواسعة، الذين لا يقر لهم قرار، ولا يربط بينهم رابط، فالعظماء وحدهم هم الذين يخلقون من هذا الشتات البشري كياناً سياسياً واجتماعياً واحداً. وابن سعود من أولئك العظماء، فقد قضى سني حياته كلها مناضلاً، مقاتلاً من أجل ذلك الهدف الإنساني الكبير، وعظمته لا تقاس بجهده النضالي ذاك، وإنما بنجاح ذلك الجهد، أولاً، ثم بأن نجاحه ذاك لم يغيره، أو يفسده، كما غير النجاح الكثيرين قبله وبعده.

وما إن انتهت ثورة الإخوان في عام ١٩٣٠م[١] حتى وجد نفسه مواجهاً بمشكل- لا ككل المشاكل- مشكل لم يكن في يوم من الأيام ضمن مشاغله اليومية، ولم يكن من اليسير عليه فهمه- ذلك هو «نفاد المال» فقد وجد نفسه مرة أخرى، مفلساً، وفي حاجة ماسة إلى المال، فالكساد العالمي، أو ما عرف بالأزمة الاقتصادية العالمية التي عمت العالم في الثلاثينيات من هذا القرن كانت قد وصلت إلى الجزيرة العربية، وأثرت في اقتصادياتها، فقد قل عدد

(١) كانت نهاية ثورة الإخوان في ٢٨ شعبان ١٣٤٨هـ.

الحجاج القادمين إلى مكة بسبب تلك الأزمة، وقل معه دخل الدولة، فالحج مورد مالي أساسي من مواردها، كما أن مصروفات الدولة في السنوات التي سبقت تلك الأزمة الاقتصادية كانت قد زادت زيادة ملحوظة، فقد بلغت مثلاً مشتريات الدولة من السلاح من بولندا مثلاً ثلاثين ألفاً من الجنيهات، ومن معدات الراديو من بريطانيا بلغت ثلاثين ألفاً أخرى، وهناك آلاف عديدة أخرى صرفت هنا وهناك، في شراء بعض السيارات الأمريكية، وفي إصلاح الطرق وفي شراء بعض الطائرات البريطانية العتيقة، ومع انخفاض دخل الدولة، أصبح ابن سعود تحت طائلة ديون لم يكن بإمكانه تأديتها.

كان اهتمام ابن سعود بالأمور المالية ضئيلاً، وكان لا يعبأ بالمال، من أين أتى وإلى أين ذهب، بل إنه ترك كل تلك الأمور المالية في يد وزير ماليته ابن سليمان،والذي كان نفوذه يزداد كلما اتسعت المملكة وتعقدت أمور إدارتها، وازدادت من ثم حاجتها للمال، وكان واجب ابن سليمان الأول هو الاعتناء بأمور الدولة المالية ورعايتها، بما فيها حاجات ابن سعود الرسمية من عسكرية وإدارية وسياسية، ومن دفع للديون والتي كانت تتراكم على الدولة، ولكنها في النهاية لم تكن ديوناً كبيرة بالنسبة للشركات والجهات الدائنة- بل كانت كبيرة بالنسبة لحكومة ابن سعود ذات الإمكانات المالية المحدودة.

في هذه الفترة اعتنق فيلبي الإسلام[1]، وازدادت صلته ببلاط ابن سعود، فقد ظل طيلة هذه المدة في جدة يبيع وارداته من الفحم، وعربات الأطفال، وسيارات الفورد، وأدوات الراديو، وكان فيلبي يكسب الكثير من الأعداء والأصدقاء كذلك في معاملاته تلك، ويمارس بعض هواياته الغريبة

(١) كان دخول فيلبي الإسلام وتسميه باسم عبدالله في ١٢ ربيع الأول ١٣٤٩هـ والموافق ٧ أغسطس ١٩٣٠م.

مثل اقتنائه للقرود الكبيرة، ذات المنظر القبيح المسماه «سعدان» - وقد بقي الكل - حتى أصدقاؤه- غير متعاطفين مع اعتناقه للإسلام، والذي لم يعط سبباً له، الأمر الذي جعل الكثيرين يستنتجون أسباباً عدة لتحوله إلى الإسلام ذاك، ولكن أكثرها صفاقة قول بعضهم: إنه إنما صار مسلماً لترويج بضائعه وتجارته، ولكن الذي نعرفه أن فيلبي كان مهتماً بالرحلات الكشفية في الصحراء أكثر من اهتمامه بترويج تجارته، وجمع المال، ولعل اعتناقه للإسلام سيمكنه من التحرك في أنحاء البلاد بحرية أكثر، ومن ممارسة هوايته وهي اكتشاف الصحراء، وتحقيق حلمه الأكبر وهو أن يكون أول أوربي يعبر صحراء الربع الخالي(١)- ولكن الرحالة البريطاني برترام توماس(٢) حرمه من تحقيق حلمه ذاك، يوم أن سبقه وقام بعبور صحراء الربع الخالي.

ومهما كانت أسباب فيلبي لاعتناقه الإسلام، فإن تحوله إلى الإسلام كان حدثاً مهماً في تاريخ الجزيرة العربية على عهد ابن سعود، إذ أصبح فيلبي من زوار مكة المستديمين، وقد سماه ابن سعود اسماً إسلامياً هو «عبدالله» وصار من بعد ذلك زائراً باقياً في بلاط ابن سعود، معه دائماً في مكة، وفي جدة وفي الرياض، وبقي كذلك لفترة ربع قرن من الزمان.

كانت ثقة فيلبي كبيرة في نفسه، وكان اعتقاده الراسخ أنه دائماً هو المصيب، والباقون هم المخطئون، وكان ذلك أمراً يثير غضب ابن سعود في

(١) عن هذه الرحلة يمكن الاطلاع على كتاب (الربع الخالي)، الذي قامت بترجمته مكتبة العبيكان.

(٢) برترام توماس ضابط بريطاني عمل في عدد من الدول العربية: عُمان وشرق الأردن والعراق، وكان عمله في عُمان وزيراً لسلطان مسقط. انظر رحلته في كتاب:

Bertram Thamas, Arabia Felix: Across the Empty Guarter of Arabia (London: Jonthan Cape, 1932).

بعض الأحيان، كما كان يثير عليه رجالاً آخرين، ولكن ابن سعود كان دائماً ما يسامحه، والحق يقال: إن فيلبي كان مفيداً جداً مهما كانت عيوبه وأخطاؤه، فقد كان أميناً لا يتطرق إليه الشك في كل الأمور المالية، كان نزيهاً، وكان مخلصاً في اهتمامه بمصالح ابن سعود، فقد كانت تلك المصالح دائماً هي شغله الشاغل، كما كان هو دائماً -كما يقولون- الشريك المخالف، صاحب الرأي المستقل والمخالف لرأي الآخرين في مجلس ابن سعود.

ولأنه كان رجلاً غربياً عاش في القرن العشرين، فقد كان صاحب تجربة غربية حديثة، ربما كانت مفيدة في أحيان كثيرة لأهل الصحراء، وكان دائم الحضور لمجالس ابن سعود الليلية التي كانت تناقش فيها أمور كثيرة وكان من رفقاء ابن سعود في رحلات الصيد وغيرها، ويقال إن ابن سعود اعترف له في إحدى تلك الرحلات بأنه في حاجة ماسة إلى المال، وأن فيلبي أشار عليه بضرورة استغلال الثروات الكامنة في جوف أراضيه، فرد عليه ابن سعود بأنه إذا كان هناك من يعطيه مليوناً من الجنيهات، فإنه سيمنحه ما يريد من حقوق امتياز في بلاده[1]، وساعتها قال فيلبي بأنه يعرف شخصاً على استعداد لتقديم تلك المساعدة لابن سعود، وكان فيلبي يفكر آنذاك في تشارلز كرين ذلك الأمريكي الذي مرَّ بنا ذكره عند حديثنا عن تعرض الإخوان في صحراء الكويت له ولمنصر أمريكي (مينسر) كان معه، وكيف أن الإخوان أطلقوا النار عليهما، فقتل المنصر، ونجا كرين هذا.

تشارلز كرين مليونير أمريكي، كان الرئيس ويلسون قد اختاره في عام ١٩١٩م عضواً في لجنة تقصي الحقائق، والتي أدت توصياتها إلى فرض نظام

(١) للمزيد عن هذا انظر: مغامرات النفط العربي، فيلبي، ترجمة عوض البادي، ص١٣٤-١٣٥.

الانتداب على كل من سوريا، وفلسطين والعراق، كان كرين رجلاً شريفاً وفاضلاً، ومهماً- وهو من النوع الذي لا يوجد الآن- كما كان رجلاً محسناً يريد أن يشمل إحسانه حكام، وأهل الشرق الأوسط، فقد ساهم في إنشاء ميناء لليمن، وبعض الطرق والكباري وغير ذلك، ولم يكن لقاؤه الأول بابن سعود عام ١٩٣٠م يبشر بخير، ذلك أنه رد على هدية ابن سعود له في ذلك اللقاء -وهي عبارة عن حصانين من خيرة الخيل العربية- بصندوق من التمر قال إنه من إنتاج مزرعته في كاليفورنيا، ولم يكن تمر كرين بالهدية المناسبة لرأس دولة، فالتمر في الجزيرة العربية هو طعام العرب الفقراء، وهدية السيد كرين هذه كانت تماثل إهداء طرد من أجنبي يتكون من السمك والبطاطس إلى ملكة بريطانيا.

وعندما غادر كرين قاعة استقبال ابن سعود، أعطى ابن سعود صندوق التمر إلى فيلبي، وهنا لا بد من التنبيه إلى أن هذه القصة هي القصة التي رواها فيلبي، والذي كان غاضباً على كرين لعدم شكره له، على تقديمه له لابن سعود، ففيلبي يقول هو الذي قدم المستر كرين إلى ابن سعود، وعليه فلابد أن تؤخذ القصة بحذر شديد، وإذا ما تركنا هذه الحادثة جانباً فإن بقية زيارة كرين كانت ناجحة، فقد أقام له ابن سعود مأدبة عشاء، وكذلك فعل وجهاء جدة، والذين كانوا يرجون من كرين القيام بإنشاء محطة تزود جدة بالماء، وفي نهاية الزيارة عرض كرين على ابن سعود أن يعيره أحد موظفيه، هو مهندس التعدين كارل توتشل.

وهكذا بدأ ابن سعود يقترب تدريجيا من عالم التجارة والاقتصاد الغربي- أولاً عن طريق فيلبي، ثم كرين، والآن عن طريق توتشل- وكان هذا الاقتراب أمراً ضرورياً، ولا مفر منه، ولم يكن تفكير ابن سعود آنذاك منصرفاً إلى

البتـرول بقدر مـا كان منصـرفاً إلى إيجـاد الماء، فـالثـروات التي تحـدث عنـهـا فيلبـي، كـانت تعنـي لابن سـعـود المياه الجـوفـيـة، وكـان حلمـه الأكبـر هو أن تجـري الميـاه مـن الآبار الارتوازية، فـتـروي أرض الـصـحـراء، وتمكن أهلهـا من زراعـتـهـا، وكـان أمله أيضـاً هـو أن يكتـشف توتشـل ذلك الماء القـابع في جـوف الصحراء.

جاء توتشل إلى الحجاز، وبدأ يفحص أراضيه جيولوجياً بحثاً عن مصادر المياه الجوفية، وبعد تأنٍّ، وتقصٍ أخطر ابن سعود أنه لا ماء في الحـجاز، وأنه لا أمل في قـيـام زراعـة فيـه، وسـاعـتـهـا فـقط سـأله ابن سـعـود إن كـان هناك مـصدر آخـر يمكن استـغلاله، وكـان توتشل قـد لاحظ أن هنـاك آثاراً جيـولوجيـة تدل على وجود شـيء من البترول على سـاحل البحـر الأحمر، وأنه شـاهـد بعض مناجم الـذهب الـقـديمة، ولكنـه لم يرد أن يرفع آمـال ابن سـعـود، ووزير مـاليـتـه ابن سليمان، فـأجاب أنه ربمـا كـانت هنـاك بعض المعادن في جوف الأرض، وإن التأكد من ذلك قد يحتاج لعملية مسح طويلة ومعقدة.

كـاد ابن سـعـود آنذاك أن يتـخلـى عن مـشـروعـه الـهـادف لتـحـديث بلاده، وتطويرهـا، وكـانت نيـتـه هـي توظيف عـدد من المهندسين، والجـيـولـوجين، وأنه ذهب إلى حد دفع مبلغ سبعمائة جنيه مقدماً لتغطيـة تكاليف سفرهم، ولكنه عندمـا أدرك مدى ضخامة المسح الجيـولوجي والهندسي، أدرك أن إمكاناته لا تمكنـه من القـيـام بهـذا المشـروع الكبـيـر، رجع توتشل بعـد أشـهـر قـلائل إلى أمريكا، ولكن بعد أن كان قد قام بتركيب رافعة ماء تساعد في رفع المياه إلى خزانات مدينة جدة، وبعد أن كان قد عـاين بعض مناجم الذهب القديمة، بما فيها منجم قيل إنـه منجم النبي سليمان، رجع تـوتشل بعد قيامه بهذه الأعـمال البسيطة، وفي أمريكا حاول توتشل استقطاب بعض شركات التنجيم الأمريكية

للعمل في الأراضي السعودية، ولكنها أدارت ظهرها له، ورفضت كل مقترحاته لها.

في هذه الفترة شهدت منطقة الشرق الأوسط عامة، ومنطقة الخليج خاصة بعض التطورات فيما يخص عملية التنقيب عن النفط وقد أدت تلك التطورات في النهاية إلى أن تولي بعض شركات البترول منطقة الأحساء اهتمامها، فقد بدأ التنافس بين الشركات حول الحصول على امتيازات التنقيب عن البترول في المنطقة العربية بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة، وظلت الشركات البريطانية والأوربية تحتكر هذا المجال حتى أواخر العشرينيات من هذا القرن، ولكن بحلول عام ١٩٣٠م، عند قيام توتشل بمهمته تلك في أرض الحجاز، بدأت الشركات الأمريكية تظهر على المسرح، وتباشر نشاطها في البلدان المجاورة لأراضي ابن سعود.

كان فرانك هولمز - الذي ورد ذكره- ضمن الرواد الأوائل الساعين للحصول على امتيازات التنقيب، وكانت شركته المسماه: الشرقية والعامة Eas-len, general، قد فقدت حقوقها في التنقيب في الأحساء بعد أن فشلت في دفع الإيجار المستحق عليها، ولكنها كانت قد لاقت نجاحاً في البحرين، إذ تمكنت في عام ١٩٢٥م من الحصول على امتياز للتنقيب عن البترول هناك، ولكنها باعته لشركة الخليج للبترول، وقامت هذه لأسباب خاصة بها ببيعه إلى شركة استاندر أويل أوف كاليفورنيا (شركة كاليفورنيا للنفط) وقد اعترضت بريطانيا على هذا البيع لأن لديها اتفاقاً مع شيخ البحرين منذ عام ١٩١٤م يحجر عليه التعامل في مثل هذه الأمور (كمنح الامتيازات... إلخ) إلا بموافقة بريطانيا، وقد نصحت بريطانيا شيخ البحرين بأن لا يجدد اتفاقية منح الامتياز إلا لشركة تكون ذات إدارة بريطانية، وكان هذا إشكالاً كبيراً بالنسبة

لشركة كاليفورنيا للنفط التي اشترت امتياز التنقيب وحلاً لهذا الإشكال قامت هذه الشركة بتكوين شركة أخرى خاضعة للقانون الكندي، أسمتها شركة البحرين للبترول وتحت هذا الاسم الجديد بدأت الشركة تنقب عن البترول في جزر البحرين، وكان أن وجدت كميات تجارية من هنا، مما أشار إلى احتمال وجوده في ساحل الأحساء المقابل لجزر البحرين، وكان على الشركة الأم ، شركة كاليفورنيا للبترول أن تتصل بابن سعود من أجل الحصول على امتياز مماثل للتنقيب عن البترول في الأحساء، ولكنها لم تفعل، وذلك لسبب غريب، وهو أن هولمز أقنعها بأنه صديق قديم لابن سعود، وأن ابن سعود لن يعطي الامتياز لغير شركته -أي شركة هولمز- ولم يكن هذا الادعاء بالأمر الصحيح،ذلك أن هولمز وشركته ما زالا مدينين لابن سعود بمتأخر إيجار الأحساء، ولم يكن هولمز يجرؤ حتى على مقابلته.

ظل ابن سعود يشهد ما يجري من منح للامتيازات عن التنقيب عن النفط في البحرين، والكويت، وما يجره ذلك على شيوخهما من دخل وفير، وكانت أمنيته آنذاك هو أن يجد شركة يمنحها مثل الامتيازات مقابل المال، الذي كان في حاجة شديدة له.

في يونيو ١٩٣٢م تفجر البترول في البحرين، وأصبح احتمال وجوده في الأحساء كبيراً، وعليه أرسلت شركة كاليفورنيا للبترول برقية إلى فيلبي ليكون وسيطها لدى ابن سعود في محاولتها الحصول على امتياز للتنقيب في الأحساء - وكان عرض الشركة يقوم على أن تمضي عقد الامتياز مع ابن سعود بعد التأكد من وجود البترول، وبالطبع رفض الأمير هذا العرض، وأصر على توقيع اتفاق الامتياز قبل بدء التنقيب.

شهد أوائل عام ١٩٣٣م قدوم عدد من مندوبي شركات البترول إلى جدة، أرسلت شركة كاليفورنيا للبترول لويد هاملتون أحد كبار موظفيها، ومعه

توتشل، وأرسلت شركةالعراق للبترول ذات الملكية المشتركة بين مجموعات بريطانية، وهولندية، وفرنسية، وأمريكية خبيراً بريطانياً هو ستيفن لونجرج -وقابل المندوبان- الأمريكي والبريطاني- ابن سعود، الذي أخبر هاملتون أنه يفضل شركته الأمريكية، وأخبر لونجرج في أدب جم أنه يفضل شركته البريطانية.

فازت شركة كاليفورنيا للبترول -سوكال (ستاندر أويل أف كاليفورنيا) بالامتياز ، وذلك بفضل عاملين - أولهما المساعدة التي قدمها لها فيلبي- وسيطها لدى ابن سعود ومستشاره- وثانيهما تعهدها بدفع مستحقات الامتياز ذهباً، هذا؛ في حين أن شركة العراق قالت: إنها ستدفع بالروبيات الهندية. وقد أوفت الشركة الأمريكية بتعهدها، فاستمرت تدفع ذهباً حتى عندما أغلق الرئيس الأمريكي روزفلت البنوك الأمريكية، ومنع تصدير الذهب.

في مايو ١٩٣٣م اجتمع مجلس ابن سعود ليستمع إلى الشيخ ابن سليمان وهو يقرأ عليهم مسودة الاتفاقية، وكان فيلبي حاضراً، نصت الاتفاقية على منح الشركة امتيازاً لمدة ستين عاماً للتنقيب واستخراج النفط في إقليم الأحساء، ومنحتها حق المعاملة الخاصة المتميزة في مناطق واسعة من المملكة، على أن تدفع الشركة مقابل ذلك إيجاراً قدره خمسة آلاف جنيه إنجليزي ذهب سنوياً، وتدفع قرضاً مقدماً مقداره ثلاثون ألفاً من الجنيهات، يسدد من عائدات النفط المستقبلية، وقرضاً آخر بمبلغ عشرين ألف جنيه بعد ثمانية عشر شهراً، وقرضين آخرين قيمة كل منهما خمسون ألفاً من الجنيهات في حال وجود البترول بكميات تجارية، وتعهدت الشركة بدفع جنيه انجليزي ذهب عن كل خمسة أطنان من النفط، وبالاتفاقية مواد أخرى خاصة بإعفاءات جمركية، وإنشاء مصفاة للبترول، والتخلي عن الأراضي التي لم تستغل... إلخ.

وعندما فرغ وزير المالية من قراءة المسودة، سأل ابن سعود الحاضرين عن رأيهم فيها، فوافقوا عليها، وعندها وجه ابن سعود وزير المالية أن يوقع الاتفاق على بركة الله، وبعد ثلاثة أسابيع من التوقيع أوفت الشركة بوعدها، ودفعت لابن سليمان وزير المالية مبلغ خمسة وثلاثين ألفاً من جنيهات الذهب الإنجليزية.

١٧-العثور على النفط

لم يكن غريباً أن يبدي البريطانيون استياءهم من النصر الذي أحرزه الأمريكيون، بحصولهم على حق امتياز التنقيب عن البترول في منطقة الأحساء، ذلك أن البريطانيين كانوا يرون أن لهم أيادٍ بيضاء على الجزيرة العربية، وحكامها، فقد أدوا دوراً مهماً في بسط الأمن في ربوع الجزيرة العربية، وأن لهم جهوداً لا ينكرها إلا مكابر في حماية المنطقة وحكامها، وأن السلام الذي جعل التنقيب عن النفط ممكناً في تلك الجهات هو من حقهم، وأن الثمرة التي قطفها الأمريكيون هي ثمرة جهود رجال بريطانيين من أمثال الكولونيل بلي وكوكس، ونوكس، وشكسبير، وديكسون، وجلوب، وآخرين ممن أسهموا في بناء النفوذ البريطاني في تلك المنطقة، وأن المخاوف التي أبداها فيلبي وغيره من أنه قد تكون لبريطانيا مطامع استعمارية في أراضي ابن سعود ليست مخاوف حقيقية.

ذلك أنه منذ نهاية الحرب العالمية الأولى، بدأت بريطانيا تتخلى عن مفاهيمها، ومطامحها الاستعمارية، وأن شعوراً قوياً بدأ يسود في أوساطها الرسمية والشعبية ضد مبدأ الإمبريالية، ومبدأ استعمار الشعوب- فقد خرجت بريطانيا من الحرب العالمية الأولى وهي فقيرة، ومنهكة القوى، ليست

لها المقدرة أوالإمكانية للاحتفاظ بمستعمراتها القديمة، ناهيك عن الإضافة إليها، هذا التغير الذي طرأ على المشاعر والنظرة البريطانية هو أمر فات على فيلبي وأنصاره فهمه؛ ذلك أن الخوف من نوايا بريطانيا الاستعمارية، بقي ردحاً من الزمن حتى بعد زوال الروح والدوافع الاستعمارية عن العقلية والشخصية البريطانية القومية، ولكن يبقى القول: إن لبريطانيا جهوداً وإسهامات في حياة ومصير تلك المنطقة لا تدانيها جهود دولة أخرى، سواء كانت تلك الدولة أمريكا أو غيرها.

قصة النفط في المملكة حدث له كل سمات الحدث الدرامي، فهي قصة فشل ذريع في مراحلها الأولى - فشل لم يكن باستطاعة أحد أن يتخيله، وهي في النهاية قصة نجاح لم يكن لأحد أن يتصوره، نجاح فاق كل التصورات، والآمال.

تخلت شركة كاليفورنيا للبترول -سوكال- عن حق امتيازها إلى شركة ثانوية تابعة لها هي - شركة كالفورنيا العربية للبترول، وبعد سنوات غيرت هذه الشركة اسمها ليصبح هو «شركة النفط الأمريكية العربية Arebian Amer-can of Co» والتي عرفت في التاريخ السعودي بأرامكو[1].

بدأت الشركة عملها في نهاية صيف ١٩٣٣م حينما وصل ثمانية من مهندسيها الجيولوجيين، ومساحيها إلى منطقة الأحساء قادمين من البحرين بدؤوا عملهم أولاً في موقع يسمى جبل الظهران، والذي كان شكله الجيولوجي يوحي بوجود كميات من النفط تحته - ثم بدؤوا بعد ذلك يجوبون أنحاء الصحراء في مجموعات صغيرة ظانين أن عملهم سيكلل بنجاح سريع.

(١) صدر الأمر الملكي في ٨ نوفمبر ١٩٨٨م، بإنشاء أرامكو السعودية لتولي أعمال شركة أرامكو بنهاية مدة الامتياز وفق العقد المبرم.

كان فنيو تلك الشركة ومهندسوها عمليين وواقعيين في نظرتهم وفي طرق تنقيبهم، فلم تكن نظرتهم إلى الصحراء نظرة حالمة بقدر ما هي نظرة عملية خلاصتها أن الصحراء مصدر للنفط ولاشيء غير ذلك، استعملوا في تجوالهم في الصحراء السيارات والشاحنات، ولم يستعملوا الجمال إلا نادراً ولحمل الأمتعة أحياناً، أو لأخذ الصور الفوتوغرافية وهم إلى جانبها، لإرسالها إلى ذويهم في الولايات المتحدة الأمريكية، عاشوا على الطعام الأمريكي المعلب معظم الوقت، ولم تكن لهم حاجة إلى لقاء العرب أو التحدث إليهم، أو مخالطتهم فقد قابلوا ابن جلوي حاكم الأحساء مرة واحدة فقط، فهم موجودون في الصحراء لسبب واحد فقط، هو اكتشاف النفط، والعرب لن يفيدوهم كثيراً في هذا المجال، ومن ثم ابتعدوا عنهم، وعاشوا بمعزل عنهم، ولعل هذه العزلة تناسب ما أراده ابن سعود، فهو لا يريد أن يعرض شعبه لمؤثرات خارجيه، بعد أن فتح أبواب الأحساء أمام الأمريكيين، ومن أجل هذا الهدف، وتحت ستار حماية أولئك الأمريكيين، فقد ألحق بكل اثنين منهم دليلاً من العرب، ليدلهم على طرق الصحراء، وحوالي اثني عشر حارساً يقومون بحراستهم، وكانت كل مجموعة مكونة من أمريكيين ودليلهما وحراسهما تكون فريقاً واحداً وتقوم برحلات في الصحراء قد تمتد إلى أربعة أو خمسة أشهر، صلتهم الوحيدة مع قاعدتهم الرئيسة جهاز الراديو (والذي كان لا يعمل أحياناً) وكانت حياتهم تلك حياة قاسية، مليئة بالمتاعب والمنغصات والإحباط.

جالت هذه المجموعات في الصحراء ولم تتعرض لهجوم أو مضايقة من أحد، قابلوا البدو مرات عدة دون أن يهتم أي منهما بالآخر، وحتى في وصفهم للبدو، لم يزد أحدهم أن كتب في مذكراته عنهم «أنهم أناس تستطيع أن

تحبهم، ولهم روح مرحة».. أما أهل المدن المتمسكين بمبادئ الدعوة السلفية فلربما كانت لهم اعتراضات على مقدم هؤلاء الأجانب، ولكنها مجرد اعتراضات.

والتقارير التي كتبها أولئك الأمريكيون، وذكرياتهم لا تعطي صورة واضحة عن تلك السنوات الأولى من تاريخ التنقيب عن النفط في الصحراء، وهناك بعض الانطباعات عن تلك الفترة هنا وهناك، منها القصة التي رواها أحد العرب الذين كانوا يدلون أولئك الأمريكيين على مسالك الصحراء، وقد سجل هذه القصة ثم ترجمها ترجمة حرفية عربي آخر، صاحب القصة هو محمد بن خرصان الذي عينه أمير القرية التي نزل بها الأمريكيون دليلاً وحارساً لأحدهم، واسمه بارجر وقد سرد خرصان هذا قصة تعيينه، وما تلاها من أحداث بطريقة تشبه الطريقة التي كان البدو يحكون بها القصص وهم يسمرون حول نار مخيمهم.

حكى خرصان عن تجواله مع بارجر، ومساعد بارجر في الصحراء، وكيف أنهم كانوا يدخلون إلى أعماق الكهوف، يكتشفون ويبحثون عن شيء ما في داخلها، قال: إنهم كانوا يزحفون على بطونهم ساعات طويلة في عمق الكهف، وكيف كان بارجر يأخذ بعض الصخور، وبعض المحار من تلك الكهوف .. ثم حكى قصة لقاء تمَّ بينهم وبين ابن سعود عندما كان معسكراً بالقرب منهما، حكى كيف زاراه هو وبارجر، وتحدثا وأكلا معه، ثم كيف دعاه بارجر لزيارة المخيم، واحتساء القهوة معه، وقال: إن ابن سعود قَبِل الدعوة ، وجاء إلى معسكرهما، وروى المحادثة الطويلة التي دارت بينه وبين بارجر عن طريق المترجم، وكيف أن ابن سعود تنبأ بمستقبل باهر للأمريكي بارجر، ولعل راويتنا

خرصان أراد أمراً من قصته تلك لأن بارجر هذا أصبح فيما بعد رئيساً لشركة النفط.

لم يسفر التنقيب عن نتائج تذكر، ولكن البحث عن النفط استمر خاصةً بعد أن طور الأمريكيون وسائل تنقلهم في الصحراء فأحضروا بعض طائرات المراقبة، وشاحنات مزودة بإطارات مصممة خصيصاً للاستعمال في رمال الصحراء، واستوردوا شاحنات وعربات مزودة بكل سبل الراحة، من ثلاجات، ومولدات كهرباء، وما شابهه، والواقع أن الأمريكيين غزوا الصحراء بآلياتهم تلك فانتهى سحر الصحراء وزال.

كان أولئك الخبراء الأمريكان يبحثون عن السمات الجيولوجية المشتركة بين منطقة الأحساء والبحرين، وعن الطبقات النفطية، والغطاء الصخري الذي يكون النفط دائماً موجوداً تحته، ولكن بحثهم ذاك، وجهودهم تلك ضاعت كلها هباءً ولما لم يجدوا شيئاً، اتجهوا مرة ثانية إلى المنطقة الأولى - جبل الظهران والتي كانوا جازمين بأن فيها نفطاً ، وبدؤوا حفر بئر هناك، أشارت طبقات الأرض الأولى فيها إلى وجود أثر بترولي، ولكن ذلك الأثر انقطع بعد عمق حوالي ٣٢٠٠ قدم، فتخلوا عن تلك البئر.

استمر التنقيب أربع سنوات، وفي نهاية عام ١٩٣٧م وبعد أن قاموا بحفر ستة آبار أخرى في منطقة جبل الظهران دون العثور على النفط، بدأ اليأس يدب إلى نفوسهم، وبدأت فكرة العودة إلى أمريكا تراود بعضهم، ولكنهم لم يخطروا ابن سعود بيأسهم ذلك، فقد ظل متابعاً نوعاً ما لجهودهم، ولكن اهتمامهم الأكبر آنذاك كان منصباً على إيجاد الماء، خاصة وأن الأمريكيين كانوا قد قاموا بحفر بعض الآبار الارتوازية في أماكن عدة.

ومن أجل إيجاد الماء دعا ابن سعود بعضاً من أولئك الخبراء الأمريكان إلى الرياض لحفر بعض آبار الماء هناك -وفي أثناء بحثهم عن الماء- لا عن النفط- في منطقة الرياض، حدث ما لم يكن في الحسبان، وما غير كل الاحتمالات والتوقعات، والذي حدث هو أن اثنين من المساحين ذهبا في يوم لمعاينة بئر عين هيت خارج الرياض، وهي البئر التي سقى فيها ابن سعود وصحبه جمالهم ليلة هجومهم على الرياض في عام ١٩٠٢م. وقد لاحظ المساحان أن هناك منعرجاً داخل فتحة البئر كان الأعراب ينزلون عن طريقه إلى أسفل البئر ليملؤوا قربهم ومواعينهم بالماء، وقرر المساحان اكتشاف هذا الدرب المتعرج، فنزلا إلى داخل البئر، وبدأا يتبعانه -حباً للاستطلاع منهما- وفجأة وقرب قاع البئر وجدا ما كانت كل مجموعات التنقيب تبحث عنه -غطاء البحرين الصخري- أو ما كان يسمى حرفياً «قلنسوة البحرين الصخرية» والدالة على امتداد الطبقة الجيولوجية المغطية للنفط الممتدة من جزر البحرين وإلى منطقة بئر هيت قرب الرياض.

وكان صدفة عجيبة حقاً أن يكون هذا الاكتشاف التاريخي في الموقع نفسه الذي بدأ فيه تاريخ المملكة العربية السعودية الحديث، ارتفعت الآمال بعد أن كانت قد هبطت إلى القاع، وبدأت عملية التنقيب بروح جديدة وبحماس فائق من جديد بدأت مجموعات التنقيب بزيادة عمق البئر الأول في جبل الظهران، فحفروا عدة آلاف من الأقدام، وفي أحد أيام مارس لعام ١٩٣٨م، وبعد أربع سنوات ونصف من الفشل والإحباط، وعلى عمق حوالي ميل تحت سطح جبل الظهران، اكتُشف النفط.

بدأت الشركة في استيراد عدد كبير من المعدات، وأخذ معسكر الظهران ينمو بسرعة حتى أضحى أشبه ما يكون بالضاحية الريفية، فزادت مساكنه،

وبنيت شقق لغير المتزوجين، وأصبح لهم ناد، وحدائق وميادين خضراء، وحوض للسباحة، وقاعة طعام، ومستشفى وعيادة، وفي مكان منفصل منطقة صناعية بها محطة لتوليد الطاقة الكهربائية، وبها مغسلة، وكراج، ومتاجر، ثم محطة للتبريد المركزي- ولو شاهد أحد البريطانيين الأوائل من المستشرقين والمستعربين، هذه الضاحية لأطلق عليها «أمريكا المصغرة».

وقامت في الظهران، وفي الصحراء المحيطة به، المنشآت النفطية، فمدت أنابيب البترول، وقامت مستودعاته، وبُني مرسى كبير لناقلات البترول في رأس تنورة، ومنه نقلت أول شحنة من نفط الأحساء إلى مصفاة البحرين، وزادت أعداد الأمريكيين العاملين في مجال النفط، فأصبحوا مئات، واستجلب العمال الأجانب، ومعظمهم إيطاليون،وهنود وسودانيون، وتدريجياً جاء العمال العرب، من القرى والبلدات القريبة من الظهران، وهؤلاء هم السكان الحضر الذين كانوا لا يأنفون من العمل اليدوي، كما يأنف منه أهل البادية. وكانت شروط العمل مجزية جداً، حيث دفعت لهم رواتب جيدة، ووجدوا عناية طبية مميزة .

وصلت في مايو ١٩٣٩م أول ناقلة بترول إلى رأس تنورة لِتُحمَّل بالنفط، وأقيم احتفال كبير بهذه المناسبة دُعي إليه ابن سعود، وكان بادياً وواضحاً أن ابن سعود، وأرامكو يقفون على عتبات ثراء عظيم، ولكن بعد أربعة أشهر فقط من هذا الاحتفال اندلعت الحرب العالمية الثانية، وتوقف إنتاج البترول كليةً.

١٨ - روزفلت وتشرشل

في تأريخه عن الحرب العالمية الثانية كتب تشرشل عن ابن سعود مايلي:

«إن إعجابي به عميق بسبب ولائه الثابت والذي لا ينفد لنا» ومن الجسارة بمكان أن يختلف المرء مع تشرشل، فلربما أعجب تشرشل بابن سعود كمحارب عنيد، أو كرجل ذي مبادئ، أو كقائد أو حتى كرجل دولة، ولكن ابن سعود كان مخلصاً ووفياً لدينه، ولشعبه، ولم يتأثر أبداً في سياساته بدافع الولاء لبريطانيا، والدليل على ذلك أنه لم يفعل شيئاً في الحرب العالمية الثانية، أو على الأصح لم يفعل ما أرادته بريطانيا منه، بل بقي على الحياد في تلك الحرب، كما بقي على الحياد في الحرب العالمية الأولى، وربما كانت عواطفه مع بريطانيا في كلا الحربين إلا أنه كان يراهما حربين لا ناقة له فيهما ولا جمل.

كانت الظروف التي مر بها ابن سعود أثناء الحرب العالمية الثانية ظروفاً صعبةً للغاية، فقد توقف إنتاج البترول بسبب تلك الحرب، وتوقف مجيء الحجاج بسبب الحرب أيضاً، والتي جعلت من الطرق البرية والبحرية طرقاً غير آمنة، وتأثر تجار مكة وجدة، وكسدت تجارتهم، وخويت خزينة الدولة، وتضاءل دخلها، ثم اختفى بعد حين، مضافاً إلى هذه المصاعب الاقتصادية، فقد أصاب البلاد في شتاء ١٩٣٩م جفاف شديد أهلك الحرث والنسل.

وأمام كل هذه المشاكل اتجه ابن سعود إلى بريطانيا مرة أخرى طالباً عونها، وعلى الرغم من أن بريطانيا كانت في تلك الأثناء تحارب النازية بمفردها، وأن مواطنيها كانوا يعانون أيضاً من قلة الطعام وندرته، إلا أنها قامت بمد ابن سعود بشحنات القمح والدقيق من مصر وكندا ، والأرز من الهند، وبكميات من العملة الفضية، وجنيهات الذهب الإنجليزية من الدار الملكية لسك العملة، وقد ساعدته شركة أرامكو بإعارته معظم شاحناتها لنقل هذه المؤن من الساحل إلى الصحراء الوسطى، وكذلك قامت الحكومة الأمريكية فيما بعد بتقديم العون المالي له حلاً لمشاكل السيولة التي كانت بلاده تعاني منها.

لم تكن أهداف الحكومتين- البريطانية والأمريكية- من تقديم تلك المساعدات أهدافاً إنسانية فقط، وإنما كانت أهدافاً ذاتية أيضاً، ولكل منهما مصالحها الشخصية التي كانت تسعى لتحقيقها، فكلاهما كانا ولا شك يأملان في كسب حسن نية العالم الإسلامي، إذا ما هما أعانا سكان البلاد الإسلامية المقدسة، وأعانا حاكم تلك البلاد ابن سعود، كما أن الحكومة الأمريكية كانت تدرك جيداً أن مصالحها، ومصالح شركاتها العاملة في مجال البترول تعتمد أساساً على الحفاظ على السلام والاستقرار في صحاري أواسط الجزيرة العربية، حيث المخزون البترولي، وتعتمد كذلك على مساندة ابن سعود لتبقى الأحوال هادئة آمنة في بلاده.

إضافة إلى مساعداتها تلك، فقد قامت الحكومة الأمريكية، وشركة أرامكو بإصلاح وتطوير مشروع الخرج الزراعي، والذي كانت الحكومة البريطانية قد قامت في السنوات الماضية بتركيب مكنات الماء فيه لمده بالمياه تابعت شركة أرامكو هذا الجهد البريطاني، فاستبدلت المكنات البريطانية

بمكنات أكبر، وقامت بحفر قناة طولها أحد عشر ميلاً لري أراضي الخرج الزراعية، كما قامت الحكومة الأمريكية بإرسال خبراء زراعيين من العاملين في صحاري الولايات المتحدة الجنوبية، للعمل في مشروع الخرج، وكان لأولئك الخبراء الفضل في غرس أعداد كبيرة من أشجار النخيل في المشروع، وكذلك في زراعة الذرة، والشعير، والبطيخ، والعنب، والبرتقال، والخضراوات، إضافة إلى إنشاء مزارع للألبان والدواجن. وكان الأمل معقوداً على أن تصبح مزارع الخرج تلك مثالاً يحتذيه بقية الزراع في المملكة، ولكن عامل عدم توافر الخبرة، ومحدودية الإمكانات وقفا حجر عثرة في سبيل تعميم هذه التجربة.

بدأت علامات كبر السن تظهر على ابن سعود خلال فترة الحرب العالمية الثانية، فما إن بلغ الستين من عمره حتى بدأ يعاني من التهاب المفاصل، وبدأ عامل السن يؤثر على جسمه الذي غطته جراح حروبه الماضية، وما هي إلا سنوات قلائل حتى كانت حركته قد ثقلت، وأصبح من العسير عليه اعتلاء درج القصر، وطرأ التغيير على خفته، وتحول نشاطه إلى هدوء وسكينة.

تحولت مجالسه الليلية من السمر ومناقشة الأمورالدينية، وبعض أمور الدولة، تحولت إلى الاستماع إلى تقارير مستشاريه المكتوبة، والتي كانوا يلخصون له فيها الأخبار التي كانت الإذاعات البريطانية، والألمانية، والإيطالية تبثها ليلاً ونهاراً، وكان يستمع إلى ملخصاتهم تلك، ويناقشهم حولها كثيراً، وكانت الدعايات الألمانية التي يبثها مذيع عربي مشهور من راديو برلين تحظى باهتمام عامة الناس(١)، وكان لها أثر كبير عليهم، وكانوا لا يلقون بالاً إلى ما تبثه إذاعة إيطاليا، وإلى حدٍّ ما إذاعة لندن، ولكن ابن سعود كان طيلة هذه

(١) يعرف هذا المذيع باسم: يونس بحري، وقد أصدر كتاباً تحت عنوان: هنا برلين.

الفترة على قناعة تامة بأن النصر سيكون حليف بريطانيا في النهاية، في حين أن بعض مستشاريه كانوا يرون غير ذلك. ومثال ذلك اغتباطهم الشديد عندما أغرقت المدمرة الألمانية بسمارك السفينة الحربية البريطانية هود، ولكن سرورهم ذاك لم يدم طويلاً إذ سرعان ما جاءت الأنباء بأن المدمرة بسمارك دمرت هي الأخرى، وقد حزن بعض مستشاري ابن سعود، وسر هو بهذا النبأ.

لم يكن فيلبي موجوداً في الرياض أثناء فترة الحرب، ليدلي بدلوه مع الآخرين حول مسار الحرب وتطورها- كان فيلبي آنذاك في إنجلترا، وهناك أصبح من أنصار السلام، والدعوة إلى فض كل المنازعات بالطرق السلمية، وأصبح من أعداء الحرب كوسيلة من وسائل حل المشكلات، وكان فيلبي يحاول وهو في إنجلترا «والتي كان قد جاءها مع الأمير فيصل بن عبدالعزيز قبل اندلاع الحرب، الذي جاء للمشاركة في مؤتمر لندن حول فلسطين» إقناع مواطنيه البريطانيين بمعارضة دخول بلدهم الحرب ضد قوى النازية والفاشية، عن طريق المحاضرات التي كان يلقيها، والمقالات التي كان يكتبها في الجرائد والمجلات، ولقد حاول فيلبي أيضاً إقناع لجنة حزب العمل البريطاني لقبوله مرشحاً نيابياً عمالياً عن دائرة ابنج والتي كانت دائرة مقفولة للمستر تشرشل،ولكن لجنة الحزب رفضت طلبه، فواصل كتابة مقالاته في الصحف اليومية منادياً بضرورة نبذ الحروب، والإبقاء على السلم العالمي، وفي يوليو ١٩٣٩م خاض فيلبي انتخابات فرعية كممثل لمجموعة سياسية (نسيها الناس الآن) هي «حزب الأمة البريطاني» Britsh people party وكان برنامجه الانتخابي يقوم حول مبدأ نبذ الحروب، ولكنه لم ينل إلا أصواتاً

قليلة، وبعد ستة أسابيع اندلعت الحرب، فأسرع فيلبي عائداً إلى الرياض، تاركاً زوجته وأطفاله الثلاثة في إنجلترا ، وكان كالعادة يظن أنه على حق، والآخرين على باطل.

سقطت فرنسا للنازيين في أيام الحرب الأولى، وأيقن فيلبي أن بريطانيا ساقطة لهم لا محالة، وأن ذلك قد يقطع صلته بعائلته تماماً، ولذا قرر السفر إلى أمريكا لإلقاء بعض المحاضرات هناك، على أن تلحق به عائلته، ولما كانت وزارة الداخلية البريطانية تشك في أن محاضراته تلك ستكون محاضرات انهزامية وضارة، فأمريكا لم تكن قد دخلت الحرب بعد - فقد قررت الوزارة اعتقاله في أثناء مروره بالهند في طريقه إلى نيويورك، ورُحل من هناك إلى بريطانيا حيث بقي قيد الحبس لعدة أشهر، أطلق بعدها شريطة ألا يغادر البلاد حتى نهاية الحرب، وهكذا ظل فيلبي في بريطانيا أثناء الحرب، بعيداً عن الرياض، وعن مجلس ابن سعود.

تهيأت في أثناء الحرب فرصة لابن سعود للخروج من العزلة التي كان يعيشها في الرياض، وللظهور على مسرح الأحداث العالمية، وكان ذلك في فبراير ١٩٤٥م عندما شارفت الحرب مع ألمانيا على نهايتها. وحينما تهيأت له فرصة الذهاب إلى مصر لمقابلة الرئيس روزفلت، ومن بعده السيد تشرشل رئيس وزراء بريطانيا اللذين كانا في طريق عودتهما بعد اجتماعهما مع ستالين في يالطا، كانت تلك الرحلة هي رحلة ابن سعود الأولى بعد رحلته القصيرة إلى البصرة أثناء الحرب العالمية الأولى، قبل ثلاثين سنة وكانت رحلة ذات طابع خاص، وأثر خاص في حياته.

جاء اقتراح الاجتماع بابن سعود من روزفلت، وسببه الظاهر لذلك هو محاولة الحصول على موافقة ابن سعود على استيطان اليهود اللاجئين من

ألمانيا في فلسطين بعد نهاية الحرب، وهي محاولة كتب لها الفشل الذريع، الأمر الذي يجعل المرء يفكر في أسباب أخرى لذلك الاجتماع، منها ربما رغبة روزفلت في إقامة علاقة صداقة مع ابن سعود من أجل مصالح أمريكا النفطية.

حمل الدعوة إلى هذا الاجتماع الوزير الأمريكي المفوض في جدة، وليام ادي، وكان أمر الدعوة سراً لا يعلمه إلا السيد ادي وزوجته، وكاتب الشفرة، ثم ابن سعود، ومستشاروه المقربون، منه، وهناك شخص آخر كان يحاول معرفة ما يجري في الخفاء، وكاد أن يعرفه ذلك هو الوزير الهولندي المفوض في جدة فان در ميولن والذي كان في طريقه إلى الرياض لمقابلة ابن سعود، عندما صادف موكب ابن سعود في الصحراء، وتمكن من زيارة ابن سعود في مخيمه.

كان مخيم ابن سعود كبيراً وشبيهاً إلى حدٍّ كبير بمخيماته الحربية الأولى، تتوسطه خيمة المجلس، ويوجد في المخيم قطيع من الضأن، وكمية من الحطب والسمر، وأدوات الطهي، ولعل الشيء الوحيد الجديد في هذا المخيم هو عمود الراديو التلسكوبي المنصوب في طرفه، وأربعة شاحنات حمراء، عليها مدافع رشاشة، وعدد آخر من السيارات التي حلت محل الجمال- وبالقرب من المخيم نصب مخيم نسائي لحوالي سبعين امرأة، هن نساء الملك، ونساء مرافقيه.

قابل فان در ميولن ابن سعود في مجلسه، وقد ذكر ميولن أنه أصيب بحرج شديد عندما سمع ابن سعود وهو يخاطب مجموعة من الشيوخ والإخوان ، واصفاً اليهود بأنهم أعداء العرب الأساسيين ولو سمع الرئيس روزفلت قول ابن سعود هذا، أو لو أدرك ابن سعود غرض روزفلت من الاجتماع به لألغى ذلك الاجتماع في تلك اللحظة.

كانت المدمرة الأمريكية مرفي في انتظار ابن سعود في جدة، لتنقله إلى مكان الاجتماع، ولم يكن ابن سعود قد ركب البحر من قبل، اللهم إلا في عام ١٩٣٠م عندما قام برحلة بحرية قصيرة في سفينة بريطانية على ساحل الكويت، ولقد ظل ابن سعود منذ ركوبه المدمرة، وأثناء الرحلة، والاجتماع بروزفلت رجلاً عربياً خالصاً، متمسكاً بعروبته، وبعاداته وتقاليده العربية، فمثلاً حددت الحكومة الأمريكية عدد المرافقين لابن سعود في هذه الرحلة بأربعة مستشارين، وثمانية خدم، وذلك نسبة لصغر المدمرة مرفي، ولكن الجميع فوجئوا عندما جاء ابن سعود بكل حاشيته المائتين، وبعد أخذ ورد توصل الجانبان إلى حل وسط فخفض عدد حاشية ابن سعود ومرافقيه إلى ثمانية وأربعين شخصاً، فيهم أخوه الأمير عبد الله، وثلاثة من وزرائه، واثنان من أبنائه، وطبيبه الخاص، وصانعو القهوة، وطباخوه، وعدد من الخدم، ولم تكن غرف المدمرة لتسع ابن سعود، ولذا نصبت له خيمة على سطح المدمرة الأمامي، وفرشت بالأبسطة.

ثم برزت مشكلة أخرى، وهي مشكلة ماء الشرب، فابن سعود لايشرب إلا من ماء بئرين، واحدة في مكة، والثانية في الرياض، وحلت المشكلة بأن حملوا إلى المدمرة كمية من ماء بئر مكة، ثم ظهرت مشكلة صعود ابن سعود إلى المدمرة، فسنه، وعجزه عن الصعود لا يمكناه من ذلك. وحلت تلك المشكلة أيضاً، بأن حمله لنش المدمرة إلى داخلها، ثم ظهرت معضلة أخرى وذلك عندما أراد طهاة ابن سعود حمل ثمانية وستين خروفاً على ظهر المدمرة، وحاول القبطان وزملاؤه إقناعهم بأن بالمدمرة لحماً مثلجاً، ولكن رفضوا ذلك العرض، فهم لا يأكلون اللحم المثلج، ثم إنهم لا يدرون بأي طريقة ذبح؟ هل بالطريقة الإسلامية المشروعة أم بغيرها، وحلت هذه المعضلة أيضاً بأن وافق القبطان على حمل عشرة خرفان فقط.

غادرت المدمرة الأمريكية وعلى ظهرها ابن سعود جدة مخلفةً وراءها شائعات كثيرة، يقول: «بعضها إن الأمريكيين قاموا باختطاف ابن سعود»، ويقول بعضها الآخر:«إن ابن سعود قد تنازل عن العرش وغادر البلاد» وهكذا دواليك، سارت الرحلة بسلام، وقد حاول القبطان ورجاله تخفيف مللها على ابن سعود وصحبه بأن عرضوا عليهم فيلماً عن حاملة طائرات... إلخ، وكان الجميع يؤدون صلواتهم في جماعة بعد التأكد من اتجاه القبلة من ملاح المدمرة، وقد تبودلت أثناء الرحلة الهدايا بين ابن سعود وبحارة المدمرة، فأهدى القبطان لابن سعود نظارة مكبرة، ورشاشين صغيرين، ورد ابن سعود بأن أهدى كل بحار مبلغ أربعين جنيهاً، وكل ضابط صغير ستين جنيهاً، أما الضباط الكبار فكان نصيبهم زي عربي وساعة، وكان نصيب القبطان ومساعديه خناجر ذهبيه، وكان واضحاً أن العرب قد تركوا في أثناء هذه الرحلة انطباعاً طيباً وقوياً على الأمريكيين.

تم الاجتماع بين ابن سعود وروزفلت في مياه البحيرات المرة، وكان اجتماعاً ودياً، بدأه الرجلان بالحديث عن الأشياء المشتركة بينهما، فوجدا أنهما متقاربان من حيث عامل السن، وأنهما يهويان الزراعة والفلاحة- وإن الإعاقة الجسدية أمر مشترك آخر، بينهما، وربما كان هو أقوى الروابط بينهما- وقد أهدى روزفلت كرسيه الإضافي (كان روزفلت يجلس على كرسي بسبب إعاقته) إلى ابن سعود ولكنه كان صغيراً لا يسعه، فاحتفظ به تذكاراً لذلك اللقاء، وقد صنع له فيما بعد كرسي آخر أكبر حجماً.

أما فيما يخص مسألة فلسطين التي حظيت بالجانب الأكبر من النقاش، فإن روزفلت فشل تماماً في التأثير على ابن سعود، في الحصول على موافقته

لاستيطان اليهود الذين طردهم النازيون لفلسطين بعد نهاية الحرب، فقد روى روزفلت لابن سعود قصة اضطهاد اليهود، وكيف أن يهود أواسط أوربا قد عانوا الويلات من اضطهاد الألمان لهم، وفصل عن أحوالهم السيئة والظروف التي يعيشون فيها، ثم سأل روزفلت ابن سعود عن رأيه في كيفية إعادة تأهيل أولئك اليهود، فأجابه ابن سعود بصراحة البدوي المعروفة، يجب إعطاؤهم أحسن الأراضي في ألمانيا، وإسكانهم فيها، وهنا اقترح عليه روزفلت أمر إسكانهم في فلسطين، فكان رفض ابن سعود رفضاً باتاً لهذا الاقتراح، وأضاف إن إصلاح الجريمة يجب أن يقع على المجرم الذي ارتكبها، وليس على الأبرياء الذين لا صلة لهم بتلك الجريمة، وقال: إن العرب لم يؤذوا اليهود الأوربيين، ولم يطردوهم من ديارهم أو يقتلوهم، وإنما الألمان هم الذين قاموا بكل ذلك، وعلى الألمان دفع ثمن جريمتهم تلك، وتحمل عواقبها، ثم أضاف إن فلسطين بلد صغير، ومن أكثر بلاد الله فقراً، وقد تحملت أكثر من طاقتها من اللاجئين.

ظل ابن سعود على موقفه هذا طيلة مدة اجتماعه مع روزفلت لم يتزحزح عنه قيد أنملة، أما روزفلت فقد أخذ يؤكد على صداقته له، وفي النهاية وعده بأمرين- أكد عليهما في رسالة لاحقة له فيما بعد- وهما: وعد أولاً بأنه كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية لن يقوم بعمل قد يكون عدائياً للعرب أبداً، ووعد ثانياً بأن حكومة الولايات المتحدة لن تعدل من سياستها الأساسية تجاه مسألة فلسطين قبل التشاور المسبق مع كل من العرب واليهود.

إعطاء هذه الوعود من جانب الرئيس روزفلت كان خطأً، ذلك أن روزفلت وقع في الخطأ نفسه الذي وقع فيه البريطانيون من قبل، وهو إعطاء وعود متضاربة مع وعود أخرى، وعود يصعب الوفاء بها في أيام السلم، وقد فهم ابن

سعود من حديث روزفلت، أن تلك الوعود هي وعود قطعتها الحكومة الأمريكية على نفسها، ولم يكن هناك مجال أو مبرر للتفريق بين تلك الوعود كوعود شخصية قطعها الرئيس روزفلت على نفسه، وبين وعود قطعتها حكومته على نفسها، فروزفلت هو رئيس الولايات المتحدة الأمريكية، وهو رئيس حكومتها أيضاً، ولهذه الأسباب لم يكن غريباً أن يعتقد ابن سعود جازماً أن تلك الوعود تعني أن السياسة الأمريكية تجاه فلسطين لن تكون معادية للعرب أبداً.

مات روزفلت بعد شهرين من اجتماعه بابن سعود، وبعد أربعة أشهر انتهت الحرب في أوروبا، وفي غضون سنة من انتهائها دعا الرئيس الأمريكي الجديد هاري ترومان وزراءه المفوضين، والممثلين الدبلوماسيين في البلاد العربية إلى اجتماع يعقد في واشنطن، وفي ذلك الاجتماع ألغى ترومان الوعدين اللذين كان سلفه روزفلت قد وعد بهما ابن سعود، فقد وجه ترومان الخطاب إلى وزرائه أولئك قائلا «إنني لآسف أيها السادة، ولكن عليّ أن أجيب عن أسئلة مئات الآلاف من الناس التواقين، والمتلهفين على نجاح الصهيونية،وليس لدي مئات الآلاف من العرب ضمن ناخبيّ»، وقد نتج عن إلغاء ترومان لوعود سلفه روزفلت، وعن تصريحاته الموالية للصهيونية، تدني ثقة السعوديين بمصداقية الأمريكيين إلى حد بعيد، وتماماً كما كانت ثقتهم قد تدنت بمصداقية البريطانيين قبل خمسة وعشرين عاماً.

لم يخطر روزفلت السيد تشرشل بعزمه على الالتقاء بابن سعود، وبعض حكام منطقة الشرق الأوسط إلا في آخر يوم من أيام مؤتمرهم في يالطه. وقد ألمح أدي فيما كتبه عن اجتماع روزفلت بابن سعود بأن البريطانيين قوم لا يوثق بهم في حفظ مثل هذه الأسرار، وأضاف أن تشرشل قد أبدى ضيقاً واضحاً عندما علم بنية روزفلت في لقاء ابن سعود، وأنه أبرق إلى كل

دبلوماسييه في المنطقة طالباً منهم تنظيم لقاءات له مع كل الحكام الذين سيلقاهم روزفلت، ولكن قول أدي هذا هراء لا أساس له من الصحة، ذلك أن ادى كان دائماً ودونما سبب واضح شديد النقد للبريطانيين، ولعل السبب الذي يبدو أكثر احتمالاً لسكوت روزفلت عن اجتماعه المرتقب بابن سعود، هو أن روزفلت قد نسي أن يخبر تشرشل به، أو أنه لم تتح له الفرصة ليخبره، ذلك أن الرجلين كانا مشغولين بموضوعات مهمة، ولا شك أنهما كانا يحتفظان بأسرار أكثر أهمية وخطورة من هذا الاجتماع.

وصل تشرشل إلى مصر للاجتماع بابن سعود ثلاثة أيام بعد اجتماع روزفلت به، ويقال إن ابن سعود ارتاح لروزفلت أكثر من تشرشل، ولوصح هذا القول، فلن يكون ذلك بالأمر المستغرب، ذلك أن تشرشل لم يقطع لابن سعود أي وعود عن فلسطين كما فعل روزفلت، فقد كان تشرشل على علم -بحكم معايشته للمسألة الفلسطينية - أن ليس لهذه المسألة حل واحد يرضي الطرفين، العربي واليهودي، ثم إن اجتماعه بابن سعود كان من باب حب الاستطلاع، والتعرف عليه كمحارب وكرجل دولة، والواقع أن تشرشل في تقريره المقتضب عن ذلك اللقاء بأنهما لم يناقشا أي أمور سياسية، والتقرير ذاك يوضح أن تشرشل لم يكن في تصرفاته مع ابن سعود في مثل حصافة وذوق الرئيس روزفلت حين التقاه. ففي الوقت الذي لم يجرؤ فيه روزفلت على تدخين سيجارة أمام ابن سعود- وروزفلت مدخن يكاد لا يتوقف عن التدخين- لم يتورع تشرشل من تدخينه سجاره المعروف أمام ابن سعود، بل إنه صرح وهو في حضرته، بأن تدخين السيجار، وشرب الخمر من الحقوق المقدسة في حياته.

لم يتبادل الزعيمان في اجتماعهما ذاك غير الهدايا الفاخرة الغالية. فقد أهدى تشرشل لابن سعود قارورة عطر باهظة الثمن، إذ قيل إن ثمنها كان مئة

جنيه بالتمام، ورد ابن سعود بإهدائه إلى تشرشل سيوفاً مرصعة بالجواهر، وحقيبة سفر مليئة بالعباءات العربية، والعطر، وعقود اللؤلؤ، وقطع من الماس تقدر بآلاف الجنيهات -وقد غمر ابن سعود- مضيفه البريطاني- بكرم فياض- ولرغبته في رد الجميل، ولعلمه بأن روزفلت قد وعد بإهداء ابن سعود طائرة ، أخبر تشرشل ابن سعود بأن الحكومة البريطانية قد قررت إهداءه أفخم سيارة في العالم، بها كل مقومات الراحة، ومعدة بطريقة تحمي راكبها من أي عدوان قد يقع عليه.

وأضاف تشرشل: أن قارورة العطر التي قدمها لابن سعود ما هي إلا هدية رمزية فقط، وقد قال تشرشل فيما بعد، إن هدايا ابن سعود له، سلمت إلى وزارة الخزانة البريطانية، والتي ربما قامت بتغطية تكاليف السيارة المهداة إلى ابن سعود، من قيمة تلك الهدايا، وقد أرسلت هذه السيارة إلى المفوضية البريطانية في جدة، والتي قامت بدورها بإرسالها إلى ابن سعود في الرياض، وقد أبدى ابن سعود إعجابه الشديد بها، ولكنه لاحظ أن عجلة قيادتها على الجهة اليمنى -مثلها مثل السيارات في بريطانيا- ولم يكن هذا ليعجب ابن سعود فالجلوس في المقعد الأمامي على يسار السائق، أمر غير مستحب، ولا تقره التقاليد، ومن ثم كانت خيبة أمل ابن سعود عظيمة في الهدية البريطانية، ويقال إن مندوب المفوضية البريطانية الذي رافق السيارة إلى الرياض، سمع ابن سعود يقول لأخيه الأمير عبدالله أن بإمكانه أخذ السيارة، فهو لا يريدها.

استقبل ابن سعود عند عودته إلى جدة استقبالاً حاراً، وكان في غاية السرور بسبب الوعد الذي تلقاه من روزفلت، الأمر الذي جعله يشعر بميل نحو

الأمريكيين، أضف إلى ذلك، أنه في هذه الأثناء ونهاية الحرب على الأبواب قرر الأمريكيون معاودة نشاطهم البترولي في الأحساء، وبدأت الظهران تعج بالحركة من جديد، خاصة وأن الحكومة الأمريكية قد أبدت رغبتها في المساهمة في نشاط أرامكو، ببناء مصفاة كبيرة في رأس تنورة، وبإنشاء خط أنابيب من الخليج العربي إلى البحر الأبيض المتوسط -ولكن رجال الصناعة في أمريكا عارضوا هذه الفكرة بحسبانها فكرة «تتعارض مع المفاهيم الأمريكية التقليدية» - فتخلت الحكومة عنها، ولكنها أمدت أرامكو ببعض المعدات والمواد المتبقية والمفرج عنها من السلطات الحربية -لبناء المصفاة- مع مواردها الخاصة، ولإنشاء خط أنابيب يمر عبر مياه الخليج إلى مصفاة البحرين- وعند نهاية الحرب كان العمل قد انتهى في كلٍّ من المصفاة، وخط الأنابيب.

١٩- المال والاضطراب

في صيف عام ١٩٤٥م وعندما كان الجنس البشري يعبر عن غبطته وشكره لحلول السلام بعد سنوات الحرب العالمية الثانية، كانت بلاد ابن سعود -والتي نعمت بالسلام خلال تلك الحرب- على حافة الفوضى -فوضى روحية ومادية- ولم يكن بوسع أحد أن يتنبأ بحدوث تلك الفوضى، وحتى إن تنبأ بها أحد، فلم يكن بإمكانه منع حدوثها، ذلك أن أسبابها كانت ملازمة ولصيقة لما كان جارياً وما جرى من أحداث، في مدة الثلاثة والأربعين عاماً التي حكم فيها ابن سعود، ولكن قبل الخوض في التاريخ المضطرب والمخجل للعقد القادم، لا بد من إلقاء نظرة على تلك الأسباب مرة أخرى.

كان أهل هذه البلاد لا يزالون بسطاء، وبدائيين، ويحيط بهم سياج لنوع من التعصب الفريد، وابن سعود نفسه، -على الرغم من ذكائه وفطنته- هو خليط من بدوي وحضري صحراوي في مظهره الخارجي، ومن رجل وهابي في معتقداته، وقد تخطى حدود التعاليم الوهابية عندما قبل بعض المخترعات الغربية، ولكنه فعل ذلك لعلمه أنها مخترعات مفيدة، ليس غير، فهو لم يقبل ولا كلمة واحدة من الفلسفة الغربية، أو الأخلاقيات، والمعايير الاجتماعية الغربية أو حتى المعرفة الفنية التي بنيت وقامت عليها تلك المخترعات ذاتها، فمملكته هي ضيعته وملكه الخاص، وحكمه سلطوي، وقانونه

الذي يحكم بموجبه هو قانون القرن السابع الميلادي الذي قال به النبي ﷺ وتعلم القرآن والسنة هو التعليم الوحيد الذي يوافق عليه.

لم يكن ابن سعود يتوقع أن ذلك المجتمع الذي ساد في الجزيرة العربية منذ فجر التاريخ سيتغير، وأنه هو نفسه سيكون آخر جيل في ذلك المجتمع، ولذا لم يفكر في تعليم أبنائه الاثنين والأربعين[1] إلا التعليم نفسه الذي تلقاه هو، وهو تعليم لا يؤهلهم إلا للعيش في الصحراء، ولمتابعة الحكم الأوتقراطي الذي أقامه هناك، فالأمير سعود ثاني أكبر أبنائه، وولي العرش حفظ القرآن وعمره اثنا عشر عاماً، ولكنه لم يتلق أي تعليم أكاديمي آخر غير أدب واستراتيجية العيش في الصحراء، والفروسية، ولم يسمح له بالسفر إلى خارج البلاد إلا عندما كان في منتصف عمره، والأمير فيصل -الابن الثاني- حفظ القرآن وهو أصغر سناً بسبب ذكائه، ولكنه سافر إلى خارج البلاد عدة مرات بعد زيارته الرسمية إلى إنجلترا والتي قام بها عندما كان صبياً، وقد استطاع بذكائه الفطري أن يستفيد من تلك الرحلات الخارجية، وأن يعي طريقة عمل الأنظمة الديمقراطية الغربية، وكيفية عيش أهلها وسلوكهم العام. ومن ثم فهو الوحيد من بين أبناء ابن سعود الذي حظي ببعض التأهيل للدخول إلى عالم القرن العشرين. أما الإخوة الباقون الذين تتفاوت أعمارهم من عمر الأمير سعود البالغ اثنين وأربعين عاماً إلى الذين هم في دور الحضانة فلم يسعفهم الحظ بما أسعف به الأمير فيصل، ومن ثم فقد ظلت حياتهم هي حياة أمراء الصحراء التقليدية.

لم يكن ابن سعود رجلاً بسيطاً فحسب، وإنما كان مُرْهَقاً، ويعاني من مرض آلام المفاصل، وعلى الرغم من أنه لم يزل في الخامسة والستين من

(١) الصحيح أن عدد أبناء الملك عبدالعزيز -يرحمه الله- هو: ٣٦ ابناً، و٢٧ بنتاً.

عمره، إلا أن ذهنه، وطريقة حديثه لم يكونا حاسمين كما كانا في الماضي، والذين عرفوه قبل فترة الحرب، ثم قابلوه مرة ثانية، صُدموا، وحزنوا للتغير الذي طرأ عليه، فهناك إلماحات من توقد ذهنه، وسحره الماضي، وهناك بقايا من غضبه الرهيب الماضي، ولكنه يبدو دائماً غارقاً في أفكاره الخاصة، وأنه لا رغبة لديه في الحديث الذي يدور حوله. ولعل إصراره على أطبائه أن يعطوه العقاقير لكل عارض يحس به. وآثار تلك العقاقير هي التي حرمته من مقدرته على التركيز.

فقد بدأ يهمل بعض مهام الحكم الطفيفة، ولكنه لم يسمح لأحد أبداً بالقيام بها، ولم يحظ الأمير سعود نائبه في الرياض، وكذلك الأمير فيصل نائبه في الحجاز بأي نوع من الاستقلال، فاتخاذ كل القرارات بيده، وحتى وإن لم يستطع اتخاذ بعض القرارات أحياناً، وعلى الرغم من ظهور علامات الشيخوخة عليه، فإن سمعته واحترام رعاياه له هما العاملان اللذان أبقيا المملكة متماسكة قوية، ذلك أن الجزيرة العربية لم تحظ من قبل بمثل هذا الاستقرار والسلام والرضاء العام[(١)].

لم يكن بإمكان أي نظام اجتماعي، أو بوسع أي حاكم أو شعب التعامل مع الثروة الهائلة التي غمرهم العالم الغربي بها، بل أغرقهم فيها، ثروة فوق الحاجة، وفوق التصور والأحلام، وفوق المعقول، فقد بلغ دخل ابن سعود من البترول في أول سنة بعد الحرب العالمية الثانية، عشرة ملايين دولار، ولكن هذا لم يكن شيئاً يذكر بجانب دخله المستقبلي، فقد تسلم في عام ١٩٥٠م مثلاً مائتين وأربعين مليوناً من الدولارات من ريع البترول،واستمر الاطّراد في

(١) لعل هذا وجهة نظر الكاتب، أما الواقع فكان يشهد بغير ذلك.

زيادة الدخل بطريقة جنونية، فقد ازداد ذلك الدخل ليصل إلى أكثر من ثلاثة ملايين دولار أسبوعياً في أخريات أيامه، واستمر الدخل يزداد أسبوعاً بعد أسبوع.

وكان كل هذا الدخل والذي كان يدفع جنيهات إنجليزية ذهبية يذهب إلى خزينة وزير المالية الشيخ ابن سليمان، وقد بدأت خزينة الدولة تمتلئ ذهباً بعد أن كانت فارغة، وقد فاض المال، ولم تسعه الخزينة، ولما لم يكن للدولة نظام بنكي خاص بها، تستطيع بواسطته التعامل مع هذا الدخل المتزايد. فقد كانت كلما ازداد المال تصنع له خزائن وصناديق لحفظه ولم يكن من اليسير أن توسع من نظامها الاجتماعي، أو تجعله يتأقلم مع هذا الوضع الجديد حتى يتمكن من التعامل بعقلانية معه.

لم يكن ابن سعود يدري ماذا يفعل بكل هذا الثراء، فهو لايريده كله لنفسه، فالقليل جداً منه سيكفيه، فمتطلباته في هذه الحياة بسيطة، وقد نال معظمها، وهي السلطان، وثقته في استقامته وأمانته... فقد تقدمت به السن إلى الحد الذي لا يمكنه من تغيير عادته القديمة، وذوقه القديم إلى عادات وذوق أكثر حداثة وغلاء وتكلفة، فعاداته هي تلك البسيطة، وفوق هذا فهو رجل ذو مبادئ وقيم عالية، يرى أن خشونة الحياة الصحراوية وتقشفها هي فضيلة عظيمة، فقد كان همه الأول عندما بدأ ريع البترول يتدفق عليه، هو أن يمارس كرمه العربي الأصيل، فيصرفه، وقد بدأ بالفعل في صرفه بكميات كبيرة جداً أولاً على أبنائه، ثم على إخوته، وأبناء عمومته وأبنائهم، ثم على حاشيته ، ومن بعد ذلك على جمهرة من أفراد الأمة الذين تعودوا العيش على إحسانه.

ولسوء الحظ فقد تصادف تذوق أبنائه لهذا الثراء مع بدايات معرفتهم الأولى لترف ورفاهية الحياة الغربية، فقد استطاعت أمريكا أن تقنع ابن سعود بإعلان الحرب على ألمانيا، وذلك قبل فترة بسيطة من نهاية الحرب، وكان ابن سعود لا يرى معنىً لذلك، خاصة وأن جيوش الحلفاء كانت قد عبرت نهر الراين، وعلى وشك احتلال ألمانيا، والواقع أن الدافع وراء إعلانه للحرب ذاك لم يكن دافعاً استراتيجياً بقدر ما كان عاملاً سيمكنه من الانضمام كعضو مؤسس لهيئة الأمم المتحدة، وقد حدث ذلك بالفعل، وشارك الأمير فيصل - مع جماعة من إخوته الأمراء- في مؤتمر سان فرانسيسكو الذي أقام الأمم المتحدة في عام ١٩٤٥م، وقد بقي أولئك الأمراء الشباب فترة شهرين في أمريكا كانت كافية لفتح أعينهم على أشياء كثيرة، فقد أصبحت الحياة في مدينة صحراوية كمدينة الرياض أمراً آخر بالنسبة لهم، كما أن الإشاعات عن ما شاهدوه، من الأمور التي يسهل الحصول عليها عن طريق المال انتشرت في أوساط أفراد العائلة الآخرين، فقد روى فيلبي أن أحد أولئك الأمراء قال: إن أكثر شيء ترك انطباعاً عليه في رحلته تلك إلى العالم الغربي، هو مطعم مقام تحت سطح الماء حيث يمكن للشخص أن يتفرج عبر حائط زجاجي على الأسماك المختلفة أثناء تناوله الطعام، وهذا الانطباع هو مقياس عادل لذوق وإدراك واستيعاب الكثيرين منهم.

كان على أولئك الأمراء عندما رجعوا إلى الرياض إيجاد وسيلة لصرف أموالهم، وكان من ضمن أفكارهم تلك هو بناء القصور، فقد اختط لهم ابن سعود ذاته مثالاً حينما بنى لنفسه قصراً جديداً خارج أسوار الرياض[1]، ولكنه بناه على الطريقة الصحراوية التقليدية: مجموعة من البيوت المبنية من الطوب

(١) هو قصر المربع.

الطيني، يربط بها ممرات وجسور ويحيط بها سور طيني تعلوه أبراج دفاعية مربعة الشكل، وكان ذلك القصر أكثر اتساعاً من قصره الأول والذي عاش فيه منذ عام ١٩٠٢م، وإن لم يكن أكثر أبهة ومظهراً، فالشيء الوحيد الجديد فيه هو نوع من الدرج المسطح الذي يمكن خدم ابن سعود من دفع كرسيه إلى الدور الأول منه حيث توجد غرف النوم، ولم يكن الأمراء ليرضوا بمثل هذا النمط البسيط من القصور، فقد كانت لهم أفكارهم الخاصة عن بناء القصور، ولكن لم يكن لهم من الفنيين ما يمكنهم من تنفيذ تلك الأفكار، فقد بدأ الأمير سعود مثلاً في بلاط قصر ذي بناء مسلح، ومزخرف بألوان وردية وذهبية، وحوله حدائق مسورة بها أحواض للسباحة، ونوافير -(ماؤها من الآبار الارتوازية التي حفرها الأمريكيون)، وبها طيور مغردةً في أقفاص، وشرفات من الفسيفساء، وآلاف من اللمبات الكهربائية في وسط الأشجار، وبه مسجد له منارات مضاءة وميكرفونات لإذاعة الأذان للصلاة، ويقال إن ذلك القصر كلف اثني عشر مليون دولار، ولكن الأمير سعود سئم منه بعد سنوات، فقام بهدمه، وبناء قصر آخر مكانه، كلف حوالي ثلاثين مليوناً من الدولارات وكان كسابقه.

حديقة ذلك القصر كانت هي ما يتخيله الرجل الصحراوي عن الجنة، ولايلومن أحد كل من أراد أن يخلق مثيلاً للجنة على هذه الأرض، ما دام قادراً على ذلك، ولكن أن يحاول فعل ذلك في وسط الصحراء فإنه سيحتاج إلى بنائين، ومقاولين، وفنيين، قد يصعب بل قد يستحيل وجودهم في الصحراء، ولمثل هذه المشاريع، وغيرها، جاء الخبراء من الخارج، بعضهم حقيقيون، وبعضهم غير حقيقيين -جاؤوا من بلدان الشرق الأوسط جماعات إلى البلاد- وكما هو معروف فالغش مرض مستوطن في بلدان الشرق الأوسط[1] - وعليه

(١) ينبغي الانتباه إلى أن هذا تعميم خاطئ مردّه إلى تعامل المؤلف أو مسموعاته عن طبقة معينة من سكان الشرق الأوسط هم الانتهازيون وقناصوو الفرص.

كان لا بد للأمراء ولابن سعود نفسه من حماية أنفسهم من ذلك المرض بتوظيف الخبراء، ولكن لم يكن لهم المقدرة على التفريق بين النصح الجاد والنصح الباطل، وعليه سرعان ما احتاجوا إلى من يحميهم من خبرائهم أولئك، والذين كانوا غالباً ما يمنحون عطاءات البناء وغيرها إلى من يدفع أكثر، وكان غرض أولئك الخبراء الأجانب وغيرهم من التجار هو الحصول على أكبر قدر من المال، وتحويله إلى بلادهم ، وعليه وعندما انتشر الخبر أن مدينة الرياض هي الآن منجم ذهب، انقض عليها نصابو ومحتالو وأدعياء بلدان الشرق الأوسط -وما أكثرهم- ونصبوا حبال غشهم، ودعاويهم حول العائلة السعودية بطريقة لم يسبق لها مثيل في التاريخ، وعلى الرغم من أن بعض السعوديين بذلوا جهدهم في هذه الأوضاع الجديدة، إلا أن لصوص الشرق الأوسط ذوي الخبرة والمعرفة فاقوهم، وتمكنوا من تحويل كل شيء لمصلحتهم، فتحول جزء كبير من الأموال التي ظلت الشركات الأمريكية تضخها إلى هذه البلاد، إلى ثروات سرية وجدت طريقها إلى خارج البلاد.

لم تكن هذه الموجة العارمة من الصرف والبذل لتؤثر كثيراً لو أن الأموال بقيت داخل البلاد، إذاً لتسرب جزء منها إلى الطبقات الفقيرة، ولارتفع مستوى معيشة الناس، ولكن الذي حدث هو العكس تماماً، فقد بدأت الأسعار في الارتفاع، فازداد الأغنياء غنىً، والفقراء فقراً، ولم يكن بمقدور ابن سعود، ولا بمقدور مستشاريه فهم هذه العملية الاقتصادية، ذلك أنهم حاولوا معالجة ظاهرة التضخم الاقتصادي هذه بالطلب من شركة أرامكو مضاعفة أجور عمالها- وكانوا قد بلغو الآلاف- ظانين ببساطة أن ذلك سيزيد من ازدهار ورخاء البلاد. وقد حاولت الشركة شرح الأمر لهم، ولكنها في النهاية خضعت

للضغط وزادت من أجور عمالها، مما أدى إلى زيادة أكثر في الأسعار، وإلى عدم تحسن أحوال عمال وموظفي الشركة، وإلى سوء أحوال غيرهم من العمال والموظفين. ولم يكن محتالو بلدان الشرق الأوسط هم وحدهم الذين هربوا الأموال التي غنموها إلى خارج البلاد، بل إن هناك بعض أذكياء ممن هالهم التضخم المالي، وسوء الأحوال الاقتصادية، فقاموا بتهريب الأموال التي نالوها أو نجحوا في سرقتها، أو في اكتسابها، إلى سويسرا، أو قاموا باستثمارها في شراء مجمعات سكنية، أو فيلات في لبنان، أو مصر، وقد ظل ابن سعود هو الوحيد الذي لم يمتلك عقاراً أو منزلاً خارج بلاده.

وكل ما حدث يشبه ما قد يحدث إذا رمى شخص بعدد من الدولارات إلى جمع من الأطفال الجياع الجهلاء، ففي مثل هذه الحالة ستشهد زحاماً ومنافسة جنونية بين أولئك الأطفال، كل يحاول أن يجمع أكبر عدد من الدولارات، وإذا ما نجح في ذلك، فسيدرك أن بإمكانه الآن شراء كل ما كان محروماً منه في الماضي، وسيحاول الحصول على كل ما يتمناه على الرغم من نصح الناصحين له، فهو لن يعبأ بمثل هذه النصيحة ما دام جيبه مليئاً بالدولارات، وما دام أصحاب المحلات التجارية قد زينوا محالهم بكل ما تشتهيه النفس من مأكل، وحلوى وكل سلعة تافهة، مثل اللعب التي لا معنى لها. وسيزداد الطلب على تلك السلع ما دامت جيوب الأطفال مليئة بالدولارات، وسيزيد التجار أسعارهم حباً في الحصول على أكبر قدر من تلك الدولارات، وسيجد الأطفال أنهم قد سلبوا أموالهم في النهاية، وعادوا فقراء مرة ثانية، جوعى مرة ثانية، لا يملكون إلا بعض اللعب الخربة ولاشيء سواها، هذا الحال الذي وصفنا هو موازٍ تماماً لما حدث في المملكة العربية السعودية.

فإلى جانب حالة التضخم، وحالة الفساد، وجد بعض الأفراد أنفسهم متورطين في سلسلة لا نهاية لها، فقد بدأ هذه السلسلة البعض بسلوكهم الساذج والذي يفتقر إلى المسؤولية، ثم بدأت تتحرك وتنمو من بعد ذلك، حتى أصبحت سلسلة ذات حلقة متصلة يغذي بعضها بعضاً، فالتبذير الأحمق، والانغماس في اللهو هما دائماً من العناصر المكونة لكثير من الحكايات المثيرة. ولقد كان أولئك هم مصدر تلك الحكايات والتي وجد بعضها طريقه إلى النشر في الصحافة الغربية والشرق الأوسطية، وظل بعضها الذي لا يقبل النشر متداولاً بين الناس شفاهةً، ولعل السمعة التي اكتسبها هؤلاء بسبب ثرائهم، وتصرفاتهم الحمقاء المكلفة هي التي جعلت البعض يفتعل تلك الحكايات عنهم، إلى الحد الذي لا يمكننا الآن أن نجزم أيها هو الصحيح، وأيها هو المختلق، أو أيها هو أنصاف الحقائق، أو أيها هو الناتج عن سوء الفهم، وكل ما نستطيع فعله هو أن نحاول فرز بعض الخيوط والسمات المشتركة بين كل تلك الحكايات.

كان سوء الفهم عاملاً مهماً وراء تصرفات البعض، فقد أخطؤوا تماماً فهم الغرب الأوروبي ، لقد رأوا واشتهوا كل مظاهر الترف والرفاهية فيه، ولكنهم لم يدركوا أسس أخلاقياته وذوقه، وقد أساء الغرب إلى حدٍّ ما فهم أولئك، إذ إنه رأى فيهم جماعة من الشبان المنغمسين في الملذات، ولم يحاول أن يتفهم العالم المتشدد أخلاقياً الذي جاؤوا منه، ذلك أنهم أعطوا انطباعاً بأنهم لم يتلقوا تربية أخلاقية مناسبة، وهو غير صحيح.

خرج ابن سعود في آخر أيامه مرتين: مرة حينما دعي لمعاينة بعض منشآت شركة أرامكو في الأحساء.

والمرة الثانية وكانت هذه المرة الثالثة والأخيرة التي يغادر فيها بلاده إلى خارجها عندما قام بزيارة رسمية إلى مصر، وقد جاء إلى الأحساء على متن طائرة ولم يأتيها في قافلة من الجمال، أو رتل من السيارات كما كان يفعل في الماضي، إشارة واضحة إلى التطور الذي طرأ على المملكة. ولكن ابن سعود ذاته لم يتغير، فهو ما زال ذلك الرجل ذا الشخصية القوية والبسيطة، وقد عاين كل مشروعات الشركة والتي رصدت مبلغ ثلاثمائة ألف دولار لهذه المناسبة، ولإقامة حفلات الاستقبال والعشاء، ولكن حفلاتها وولائمها تلك بدت صغيرة بجانب الولائم التي أقامها ابن سعود، والتي أقامها حاكم الأحساء ابن الأمير عبد الله بن جلوي.

فقد مدت وليمة ابن سعود على مسافة طولها ٢٢٥ قدماً، وعرضها عشرة أقدام، أما في وليمة ابن جلوي فقد وجد الضيوف الأمريكان أنفسهم وجهاً إلى وجه أمام جمل كامل مطبوخ، -أرجله ورأسه وكله- وأمام مائتين وثمانين خروفاً كاملاً مطبوخاً، وضعت هذه الخراف على تلال من الأرز، وأمام ألفي دجاجة مطبوخة، وستة آلاف بيضة، وحوالي عشرة آلاف من صحون الفاكهة والحلوى، وعندما أكل الضيوف البالغ عددهم خمسمائة كفايتهم، تبعهم الجنود والخدم، فأكلوا أيضاً، ثم جاء أهل البلد فأكلوا وأخذوا معهم ما استطاعوا أخذه من بقايا هذه الوليمة إذ شوهد بعضهم وهو يحمل قطعاً كبيرة من اللحم، ما يلبث أن ينقض عليه آخرون من الجمهور، فيأخذوها منه، كما أن الحراس على الأبواب كانوا يفتشون ما أخذه هؤلاء من طعام ليتأكدوا أنهم لم يأخذوا معهم ملاعق وأطقم طعام الحاكم، ولقد أدهشت هذه المناظر الضيوف الأمريكان، في حين أن تعليق ابن سعود كان «وليمة عظيمة، وفقكم الله في الاستمتاع بمطايبها».

أما الرحلة إلى مصر في عام ١٩٤٦م فقد كانت شأناً عظيماً أيضاً، ولكن يبدو أنها لم تدخل السعادة إلى نفس ابن سعود كما ينبغي، فقد أقيمت له فيها الحفلات والولائم، واستقبله أهل الإسكندرية والقاهرة استقبالاً حافلاً، فقد رأوا فيه ذلك المحارب الجسور، والبدوي الذي كثيراً ما سمعوا عنه، رسموا له صوراً خيالية في مخيلتهم ولكن كل ذلك -كما قال فيلبي- لم يثر اهتماماً أو رد فعل واضح لدى ابن سعود، فهو مثلاً لم يدلي بخطبة أو كلمة طيلة هذه الرحلة، كما أنه لم يتحدث إلى الصحافة ولا مرة واحدة. وقد بدت روحه المرحة القديمة مرة واحدة أثناء هذه الرحلة، وذلك عندما علق في أثناء أحد الاحتفالات قائلاً لأحد مرافقيه: «إن بمصر بعض الفتيات الجميلات، وإنني لن أمانع في أخذ مجموعة منهن معي إلى بلادي، أو دفع مئة ألف جنيه مقابل هذا الجمال» ولكن يبدو أن ابن سعود كان بتعليقه هذا يجتر ذكريات الماضي.

وربما كان صمته في أثناء تلك الرحلة ناتجاً عن ما أحدثته في نفسه مشاهدته للمدن المصرية الحديثة. وأغلب الظن أن صمته ذاك كان بسبب أن زيارته تلك زيارة رسمية، وأن مصر كانت آنذاك تعج بأمور السياسة العربية، وأن ابن سعود كان حريصاً أن لا يدلي بحديث أو تصريح حتى لا يثير مشاعر تلك الجهة العربية أو تلك، وكان واضحاً أن النظام الملكي في مصر يعاني من مشكلات عدة، وأنه على وشك الانهيار- وهو ما حدث بعد ست سنوات، كما أن الملك فاروق كان غير محبوب من شعبه، ولا يحظى بتأييدهم، وإلى جانب هذا الوضع الداخلي كانت هناك الجامعة العربية في مصر، والتي شارك ابن سعود في إنشائها، وكان أحد أعضائها إلى جانب كل من مصر، واليمن،

سوريا، ولبنان، وغرمائه القدامى حكام شرق الأردن، والعراق، وقد أنشئت الجامعة العربية بمساندة من بريطانيا وفي محاولة لخلق شيء من التعاون في العالم العربي، ولكن سياساتها أضحت فيما بعد ضد بريطانيا لأن العرب كانوا متفقين جميعاً على إخراج اليهود من فلسطين حالما انتهى الانتداب البريطاني عليها.

كانت الجامعة العربية ترى ضرورة حرب اليهود، ولم يعارض ابن سعود هذا الاقتراح، بل أذعن له، ولكنه كان يعتقد أن البريطانيين والأمريكيين لن يسمحوا أبداً بهزيمة اليهود، وعندما حل عام ١٩٤٨م، وانتهى الانتداب البريطاني على فلسطين، وأعلنت الجامعة العربية حربها لتحرير الأرض الفلسطينية السليبة، وباءت تلك الحرب بالفشل الذريع، كان ابن سعود أقل الزعماء العرب استغراباً لذلك الفشل العربي، والذي كان نتيجةً للعجز الحربي، ولغياب عملية التنسيق بين الجيوش العربية المختلفة. ولم يكن ابن سعود - أثناء زيارته الرسمية لمصر- براغب في جرح مشاعر بريطانيا، والتي كان لا يزال يكن لها بعض المشاعر الودية، أو في الإساءة إلى مشاعر أمريكا والتي كان يعتمد عليها مالياً اعتماداً أساسياً، وقد قبل دعوة السفير البريطاني له لحضور حفل مقام على شرفه، ولكن ذلك السفير اعتذر عن حضور حفل أقامته الجامعة العربية على شرف ابن سعود، متعللاً بسبب واه وهو ارتباطه بتقديم خطبة في مدرسة بريطانية للبنات في الإسكندرية، ولقد قال فيلبي إن ابن سعود كان سعيداً برجوعه إلى بلده من تلك الزيارة، وكتقدير للحفاوة التي لقيها من العاهل المصري فقد وعده بمعونة سنوية قدرها مئتا ألف جنيه ذهب.

كان لهذه الرحلة أثر واحد ظاهر على ابن سعود، وهو أنه جاء من مصر، ولديه رغبة جامحة في بناء خط حديدي في بلاده، ولعل ذلك ناتج عن سفره بالقطار من القاهرة إلى الإسكندرية هو الذي أحيا في نفسه هذه الرغبة،، ففي حين كان الأمير سعود يتوق إلى إنشاء حديقة رائعة، وكان الأبناء الآخرون يريدون بناء القصور، واقتناء العربات الفارهة.

كان أبوهم ابن سعود يريد بناء خط حديدي من الخليج العربي إلى الرياض، ومنها عبر الصحراء إلى جدة، وقد عارض فكرته هذه كل من شاورهم حولها، بحسبانها فكرة طارئة طرأت له، لاعتقاده بأن لكل البلدان المتقدمة، ولكل الحكام المقتدرين خطوط حديدية في بلادهم، وقد حاول الخبراء الأمريكان إقناعه أن إنشاء خطوط السكة الحديد أمر عفى عليه الزمن، وأن البديل الأحسن والأرخص هو إنشاء الطرق البرية، والاعتماد على الشاحنات والسيارات الكبيرة،ولكنه ظل مصراً على رأيه، قائلاً: إن سائقي تلك الشاحنات سيكونون من رجال القبائل القاطنة على الطريق البري، وإن السائق ربما أوقف الشاحنة، أو ذهب بها لزيارة أهله في الصحراء، ولكن سائق القطار لن يتمكن من فعل ذلك، فمتى بدأ رحلته، لن يتوقف إلا في نهايتها، والقطار هكذا، وربما ظن ابن سعود أن الطريق البري شبيه بطريق القوافل، وقد يتعرض لغارات البدو وسلبهم. ولكن البدو لن يستطيعوا نهب القطار.

وكان ابن سعود يريد بناء الخط الحديدي تحت كل الظروف، ولأنه الملك، فقد قامت شركة أرامكو ببناء الخط له، من الدمام إلى الرياض، وجهزته بأحدث المعدات الأمريكية، على أن تخصم تكاليفه التي وصلت إلى سبعين مليوناً من الدولارات من ريع البترول . وقد تم إنشاء الخط في عام ١٩٥١م،

وافتتح ابن سعود محطته في الرياض، وقد صرح بأن موقع المحطة هو المكان نفسه الذي ترك فيه وصحبه جمالهم ليلة هجومهم على مدينة الرياض قبل أربعين عاماً، وقد نجح الخط وبرهن أن ابن سعود كان على صواب، وما زال خطاً فاعلاً مكن الرياض من الاتساع، والنمو لتصبح مدينة حديثة وتضاءلت أهميته عندما تم بناء طريق بري بين الرياض وساحل الخليج العربي في عام ١٩٦٢م وقد صرف النظر عن إنشاء امتداد للخط الحديدي بين الرياض وجدة.

وقد يبدو غريباً لأي ناقد غربي أن ابن سعود لم يصرف أموالاً على مشاريع عامة، غير صرفه المال على بناء هذا الخط الحديدي، وعلى حفر كثير من آبار المياه، وهناك خطط وضعت أثناء حياة ابن سعود لبناء مستشفيين ، واحدة في الرياض والأخرى في الطائف، وبناء رصيف لميناء جدة، وقد تمكن وزير المالية ابن سليمان من الحصول على معونات من الولايات المتحدة لإقامة هذه المشاريع، ولكن الطائف أصبحت الآن مصيفاً. لقد كان بناء الرصيف في جدة لغرض خدمة الحجاج، على أنه خطر على بال ابن سعود أن يحول جزءاً من الثراء الذي انهال على بلاده في إقامة الخدمات التي يحتاجها رعاياه: مثل خدمات طبية، ومدارس، وطرق، وصحة، ومواصلات، وسائل تأمينية أخرى غير تلك التي تجود بها أريحيته وكرمه.

الذين يعيشون في ظل دولة الرفاهية والرخاء هم الذين يدركون حسنات تلك الدولة، أكثر من غيرهم ممن لم يسمعوا بوجود مثل تلك الدولة. ويمكن القول إن العرب عرفوا دولة الرخاء تلك إلى حدٍّ ما، وذلك لاستطاعتهم الدخول على ابن سعود في مجلسه متى شاؤوا، وطلب المساعدة منه، لا كمنَّة منه، ولكن كحق من حقوقهم، فهم يقدرون ويعتزون بحقهم هذا- حق طلب

المساعدة من ابن سعود-ولكنهم لا يعرفون حق طلب المساعدة من الحكومة، فهذا أمر لم يعرفوه، ولم يعتادوه أبداً. ففي المجال الطبي مثلاً قليل من أهل المنطقة الشرقية، وبعض من أفراد العائلة المالكة هم الذين تلقوا علاجاً طبياً من البعثات التنصيرية الطبية الأمريكية العاملة في البحرين، أما ابن سعود ذاته فله طبيبه السوري الخاص، والغلبة الغالبة من رعاياه فهم الذين يعتنون بأمورهم الصحية، وهم قانعون بما قسم الله لهم، ومعرفتهم الطبية لا تتعدى التداوي ببول الجمال لكل الأمراض الباطنية، أو الكي بالنار لأعراض المرض الظاهرية.

كان ابن سعود يرى أن إنشاء الخدمات الطبية العامة أمر يحتاج إلى جهد كبير، وأنه أمر محفوف بالمخاطر، مخاطر الآثار الأجنبية التي قد ترد مع إقامة تلك الخدمات والتي قد تهدد أسس المجتمع السلفي، وكان ابن سعود يرى أنه ليس من أهل البلاد مَنْ يستطيع القيام بمثل هذه المهمة، فهم غير مؤهلين لذلك، ولذا لابد من توظيف الأجانب -من أطباء، وصيادلة، وممرضين وممرضات- وبثهم في المستشفيات والمصحات في المدن والقرى المختلفة، وأن أولئك سيأتون إلى البلاد بكل بدعهم وآثارهم السلبية، وفي هذا كل الخطر، فأثر رجال النفط الأجانب محصور في منطقة الأحساء، وأثر الحجاج سيظل محصوراً أيضاً في جدة ومكة والمدينة، ولكن أثر الأطباء الأجانب سينتشر إلى بقاع المملكة، وسيؤثر على كل الناس، وربما أدى إلى تقويض مبادئ العقيدة السلفية تماماً.

هذه المخاطر كانت تبدو بوضوح أكثر في المجال التعليمي، فليس في المملكة معلمون مؤهلون من أهل البلاد، اللهم إلاالعلماء السلفيين، وأنه إذا ما

تعرض شباب البلاد إلى التعليم على أيدي المعلمين الأجانب، فإن ذلك سيؤدي إلى التأثير السلبي على كل جوانب حياتهم، ستتأثر معتقداتهم الدينية، وسيتغير وضعهم الاجتماعي. ولم يكن ابن سعود ليرى أن تلك التغييرات ستكون إلى الأحسن أو في الصالح العام، فهو رجل تقدمت به السن، وهو نتاج النظام القديم.

وكان للملك الحق في التردد، فأن تبدأ بتعليم شعب بكامله أمر في غاية الحساسية، وليس هو بالأمر المفيد دائماً، فإذا ما أخذ أبناء البدو من بيئتهم البدوية التي ولدوا فيها وألفوها، وأدخلوا المدارس، فقد تصيبهم رياح التغير فيصبحوا غير قانعين بوضعهم البدوي الأول، وكذلك الحال مع أبناء المدن، والذين إذا تعلموا القراءة والكتابة، تتغير أوضاعهم وأحوالهم وتطلعاتهم، ويبقى على سلطات المدينة واجب مدهم بالعمل الذي يناسب تعليمهم، وإذا لم يتيسر ذلك، فإنهم سيصبحون غير راضين عن أوضاعهم الجديدة تلك، وعليه بدا واضحاً أن التعليم لن يجعل من أبناء البدو أو أبناء الحضر أناساً سعداء، فالبدو على وجه الخصوص كانوا يعتقدون أن أسلوب حياتهم هو الأسلوب الأمثل والأرقى من أي أسلوب آخر[1].

وهكذا بقي النظام الاجتماعي على حاله الأول، تحيط به وتحرسه نظرة ابن سعود المحافظة، فهناك الجيد والحسن في الأنظمة القديمة، والبالي والفاسد في كل نظام جديد، ولكن التغيير أمر لا بد منه، ولا بد من حدوثه، فهناك على ذلك الطرف من المجتمع يوجد الأمراء بكل ما استوردوه، ويستوردونه من حاجيات الحياة الغربية، وعلى الطرف الآخر جموع البدو

---

(١) كل المخاطر التي أشار إليها الكاتب تتنافى مع الواقع فعلاً، ولعل الاطلاع على أقوال الملك عبدالعزيز في تلك المجالات التي تناولها الكاتب تدحض كل ما قاله.

والفقراء من أهل قرى المنطقة الشرقية وهم يشهدون زخرف الحياة الأمريكية في معسكرات موظفي النفط، وبين أولئك الأمراء، وهؤلاء البدو والفقراء فجوة، ولكن بمجيء المال والثراء، وطلائع مستوى المعيشة الأجنبية الذي عاشه الأمريكان في الظهران، كان لا بد من ظهور تطلعات جديدة، ومطالبة جديدة لكل ما تتمتع به البلدان الأخرى.

كانت استراتيجية عمل شركة أرامكو تقوم على إدراكها أن البلاد مقبلة على تغيير شامل وسريع. تغيير من القديم البالي إلى الحديث- وأن البلاد ستشهد ثورة صناعية، واجتماعية، وإصلاح ديني- كل ذلك في آن واحد، وكانوا مدركين أن ذلك التغير آت لا محالة، ومن ثم فقد عملت شركة أرامكو كل ما في وسعها لمقابلة أزمة التغيير هذه، فقد أقامت علاقات حسنة مع ابن سعود ومع شعبه، وكانت تلك سياسة تجارية جيدة، ولكنها قدمت فرص العمل إلى أعداد كبيرة من العرب السعوديين التي بلغت أعدادهم في عام ١٩٥٢م حوالي خمسة عشر ألفاً من العمال وغيرهم، وأعطتهم أجوراً مغرية جعلت الكثيرين يغبطونهم عليها، وخدمات طبية ممتازة، ومعونات لتمكنهم من بناء منازل لهم، وخدمات الماء والكهرباء، وبالخدمات الاجتماعية الأخرى، مثل المساجد، والمغاسل، والطرق، وسبل المواصلات، وفوق هذا وذاك أمدتهم بفرص التدريب، ومكنتهم من فرص التعليم المهني، والتدريب الصناعي حتى أصبحوا في مستوىً معادل لزملائهم العمال الأمريكان، وفتحت أمامهم فرص الترقي، فاعتلوا سلم الوظائف المهنية، وشبه المهنية، وما إن أتت سنة ١٩٥٩م حتى كان السعوديون يحتلون حوالي ثلثي الوظائف ذات المهارات العالية، وشبه المهارات. كما أن الشركة درجت على تدريب موظفيها الأمريكان قبل إرسالهم إلى المملكة، بإعطائهم دروساً في مبادئ اللغة العربية، وفي العادات، والتقاليد

والمعتقدات العربية، وعلمتهم أن يكونوا دائماً ضيوفاً على العرب، وأن علاقاتهم الودية معهم مهمة أهمية مسؤولياتهم الوظيفية، وبهذا الإصرار من جانب أرامكو على أن تكون مخدمةً جيدة، ساهمت في الإسراع بعملية التغيير، وإذا ما افترضنا أنه كلما أساء الأمريكان التصرف -كما كان يتوقع منهم السلفيون المتشددون- فإن ذلك سيؤدي إلى تقوية المبادئ السلفية، بل وإلى تقوية كل النظام الاجتماعي القديم، وسيكون الأمريكان هم الملامين في حالة وقوع أخطاء، ولكن هذا الافتراض لم يحدث، والذي حدث هو العكس تماماً، فالأمريكان الذين أساؤوا معاملة السعوديين في الأيام الأولى، وسموهم «زنوجاً ملعونين» كانوا قلة قليلة، سرعان ما أبعدوا عن وظائفهم.

وبقيت الأغلبية الغالبة من الأمريكان وهم يحسنون معاملة السعوديين، إلى الحد البعيد، بكل صبر وكرم، وعليه كان كلما عاد فوج من العمال إلى مواطن قبائلهم بعد انقضاء فترة عملهم مع الشركة، أو عادوا في عطلات، يتحدثون باستحسان عن المعاملة التي يلقونها من هؤلاء النصارى الجدد، ويثنون على الخدمات التي يجدونها في معسكراتهم، وهناك احتمال بسيط أن قليلاً منهم لم يتخلّ عن دينه الإسلامي كلية، ولكنهم أهملوا بعض جوانبه، كما أنهم أصبحوا أقل تعاطفاً وتقبلاً لمبادئ الدعوة السلفية المتشددة، ولم يكن بوسع ابن سعود أو العلماء إعطاء العلاج الناجح لمثل تلك المؤثرات التي تعرض لها أولئك العمال. فقد جرت محاولات يائسة لإثناء العمال العرب من مشاهدة الأفلام الأمريكية، أو لعب كرة القدم، بحجة أن الملابس التي يرتديها لاعبو تلك الكرة قصيرة وغير محتشمة، ولكن كل ذلك لم يجد فتيلاً.

وهكذا فقد حاصرت ابن سعود وهو في أخريات أيامه صراعات على ثلاث جبهات، تمثلت أولاها في التبذير، وثانيتها انحراف بعض الموظفين،

وثالثتها يقظة كثير من المواطنين، وبحلول عام ١٩٥٠م كان واضحاً استحالة حل أي من هذه الصراعات الثلاث، فلم يكن بإمكانه التغاضي عن تجاهل المثل الأخلاقية التي اختطها لنفسه ولغيره، كما لم يكن بإمكانه أيضاً النضال من أجل إبقاء تلك المثل حية ومعمولاً بها-ولم يكن أمامه إلا شجب تلك الممارسات، وإبداء حزنه وأسفه على استمرارها، وفي النهاية عزل نفسه عن كل ما يدور حوله.

وكانت تلك نهاية حزينة لمقاتل من أجل الدين جسور، وكان كلما تقدمت به السن تزداد متاعبه الصحية، ويزداد شعوره بالحرمان من مغامراته الماضية، أيام شبابه الأولى، وأيام عنفوان ذلك الشباب، أيام ركوب الخيل، والرحلات الطويلة على ظهور الجمال وأيام الحروب والمعارك، كلها أيام ولَّت وأصبحت في عداد الذكريات، وقد عاش الملك طويلاً ليرى أن حلمه الأكبر قد تحقق، فها هي مملكته التي كان يحلم بها أصبحت حقيقة واقعة.

ولم يقل لنا أحد، أو تذكر أحد، أن ابن سعود قد أبدى ندمه لكل ما حدث- ولم يبد أنه أبدى أسفه لليوم الذي قال فيه لوزيره ابن سليمان «توكل على الله» ووقع اتفاقية منح امتياز البترول للشركة الأمريكية. وليس من عادة الملوك، بعد أن ظلوا ملوكاً طيلة حياتهم، أن يقوموا بعملية نقد ذاتي لأعمالهم، وحتى إذا ما خطرت فكرة النقد هذه على ذهن ابن سعود، فربما سيجد المبررات والتعليلات لمنحه اتفاق منح امتياز البترول ذاك.

وربما كان ابن سعود يرى في قرارة نفسه أن المال ليس شراً في حد ذاته، ولكن الشر هو في استعمال الناس له، وكل الذين كانوا قريبين منه في أيامه الأخيرة يذكرون أنه كان غير سعيد، وأنه كان يبدو مرتبكاً في بعض الأحيان،

وكان كلما أطل ببصره من قصره في الرياض، أو بيته الصيفي في الطائف رأى شراً وخبثاً وفوضى، وكان لا يرى سبيلاً إلى إيقاف كل ذلك، وكان لا يعلم أن معظم ذلك الخبث والشر قد أخفي عنه، وكان يبدو له في أحيان أن الشرف والكرامة قد ماتا، أو أنهما يموتان، فها هي القوى البريطانية التي كثيراً ما اعتمد عليها بدأت في الزوال،وها هو العالم يدخل حرباً أخرى سميت بالحرب الباردة، لم يكن يفهم كنهها أو طبيعتها. وقد ظل فيلبي طيلة هذه المدة ضمن أنصاره القلائل المخلصين له، كما ظل الرجل الغربي الوحيد الذي كان يتحدث إليه بانتظام. وقد أخبرنا فيلبي أن ابن سعود كان شديد الكراهية للشيوعية ليس بسبب عدائها للدين فحسب، ولكن بسبب ما نما إلى علمه من أن الشيوعيين كانوا يعاشرون أمهاتهم وأخواتهم معاشرة زوجية، وذلك منتهى الخزي والعار بالنسبة له، وكان يعتقد أن الأمريكيين أغبياء لعدم استعمالهم للقنبلة الذرية على الشيوعيين، ما داموا حائزين على تلك القنبلة، والشيوعيون غير حائزين عليها.

كان الصمت يخيم على قصره لفترة طويلة قبل موته، فجموع الزوار، ورجال البلاط، والخدم، والذين كانت شخصيته تبعث فيهم الحركة والنشاط أخذت في التضاؤل ، وفقدت حيويتها، وحل محل ذلك النشاط وتلك الحيوية جو من السرية، لأن هناك أشياء كثيرة كان لا بد من إخفائها عنه، لأنه مريض ومتعب، ولأنه لم يكن بإمكان أحد اتخاذ القرارات ما دام هو على قيد الحياة، وكان بادياً للعيان أن ثمة نهاية أساسية على الأبواب، ليست نهاية الحياة فحسب، أو لحكم استمر مدة خمسين عاماً، وإنما نهاية لشكل مجتمع بشري لم يتغير إلا تغيراً يسيراً، واستمر في ذلك مدة طويلة حتى بدا وكأنه غير قابل للتغيير والتجديد.

لقد قال كوكس قبل سنوات، وعندما كان ابن سعود في أوج عظمته وانتصاراته: إنه لم ير ابن سعود يخطئ ولو مرة واحدة، وهو الآن في أيامه الأخيرة نفس ذلك الرجل البسيط الأمين الذي عرفه كوكس من قبل، ولكن العالم الذي عاش فيه، وأثر فيه، قد زال واختفى، مات ابن سعود إثر نوبة قلبية اعترته وهو نائم ، وكانت وفاته في الطائف في اليوم التاسع من نوفمبر عام ١٩٥٣م، وقد أخذ جثمانه -يرحمه الله- مباشرة إلى الرياض حيث ووري الثرى دون ضجة تذكر، وقبره قبر عادي ضمن القبور، ليس عليه ما يميزه، وقليل من أهل الرياض هم الذين يعرفون مكان ذلك القبر، وحسب المعتقد السلفي فليس هناك من يزوره[١].

(١) المعتقد السلفي كما يزعم الكاتب هو استحباب زيارة القبور للعظة والسلام على الموتى والدعاء لهم، أما زيارتهم للتبرك وغيرها فهي ما نهى عنه الشرع وهو معتقد السلف الصالح.